9me Année No. 402

Lundi - 17 - 3 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٠٢ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٩ صفر سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٧ مارس سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــــرس

العصبية داؤنا الموروث

كنا ستة فى أحـــد مجالس القطار السريع الصاعد إلى القاهرة . وكانت غريبةُ الغرائب أن يجتمع فى هـذا المجلس الطائر القلق ثلاثة ينتسبون إلى ثلاثة أحزاب سياسية ، واثنان ينتمى كل منهما إلى فرقة دينية ؛ وكنت أنا وحدى المستقل فيما بينى وبين الله والناس . وكان مما ليس بُد منه أن يترامى بهم الحديث إلى ذكر ما يشغل الخواطر من شؤون الدين والسياسة والحرب ؛ فكان لكل منهم هوى لا يتابعه هوى ، ورأى لا يشايعه رأى ، حتى انقلب الحديث اللطيف جدلاً صخاباً لا حيلة فيه إلا للإشارة العنيفة والحنجرة الصُّلبة

حينئذ ابتلعت لسانى ودخلت فى نفسى وتركت هذه الأفواه يقذف بعضها فى وجه بعض ؛ ثم أخذت أفكر فى هذه الصدَعات التى مزقت الكلمة وفرقت الدين ، وجعلت بعضنا يبنى وبعضنا يهدم ، وأحدنا يسوق والآخر يعوق ، فلم أجد لها مصدراً تشتق منه إلا العصبية !

تصورت فى هذا المجتمع الصغير ، صورة ذلك المجتمع الكبير ، فعجبت كيف يتسنى فى هذا الجمع الشتيت أن يتفاهم لسان ولسان ، ويتآلف قلب وقلب ، وتتعاون يد ويد ، حتى يجوز أن تنتج من اتحاده قوة ، وأن تنشأ من آحاده أمة !

الفرد فى نفسه هو كل الناس ، وشيئه فى عينه هو كل شىء ، ورأيه فى عقله هو كل رأى ؛ وذلك داء موروث من أدواء العصبية التى أفسدت كيان العرب وأوهنت بناء الإسلام بما يلازمها من حب الاستئثار وشهوة الرياسة

لم تمت العصبية من حياة العرب إلا فترة موقوتة بحياة الرسول . فلما استعز الله برسوله انبعثت فى (السقيفة) بين المهاجرين والأنصار تقول : منا أمير ومنكم أمير . ثم سلطها الشيطان على الخلافة فانقسم العرب إلى هاشمية وأموية ، ثم إلى قيسية ويمنية ، ثم إلى علوية وعباسية ، ثم إلى عربية وشعوبية . وأغراها بالدين فانشعب المسلمون إلى اثنتين وسبعين فرقة ، تتقاطع بالضلال ، وتتمادى فى الباطل ، وتزعم كل فرقة أنها هى وحدها الناجية ! ولو كان تحزب العرب وتشعب المسلمين لمبادئ تصلح الدنيا وتعز الدين ، لكان ذلك أخلق بمن جعلهم الله أمة وسطاً ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ؛ ولكنهم اختلفوا تعصباً للنفس أو الجنس أو الرأى ، وتوسلاً لبلوغ الحكم أو خضوع الخصم أو فتون العامة

وحب الرياسة وشهوة الحكم هما شر أدواء العصبية وبالاً وأشدها استفحالاً فى الشرق القديم والحديث. ولو ذهبت تستقرى عوامل الشقاق والانشقاق بين العرب فى جميع الأطوار والأقطار لما عدوت ما رُكب فى طباعنا من حب الظهور ، ورغبة التفرد ، ورذيلة الحسد

إذا جاء الأمة خير لا نصيب لى منه ولا سلطان لى عليه ، جعلته شراً يستعان على درئه ببدَع تتسم بسمة الدين ، وخدَع تتستر بستار الوطن . وإذا نهضت فى الأمة جماعة للإصلاح ولم يكن لى موضع الرياسة فيها ولا مرجع الفائدة منها ، أشعتُ حولها الريَب، وأطرْت فوقها الظنون، حتى يستوحش من ناحيتها الناس فتفشل

تنازع زعيمان عظيمان من زعمائنا على الرياسة أو ما يشبه الرياسة ، فقسما الأمة بنزاعهما قسمين متعارضين لكل منهما آراؤه وحججه ومبرراته ؛ وكاد يدخل على الناس أن هناك مذهبين فى سياسة البلد : أحدهما يصل والآخر ينقطع ! وكان مبعث الأمر كله عصبية الرأى وشهوة الرياسة .

واجتمع أعضاء مجلس الإدارة لجمعية المعلمين فى بغداد يوم أنشئت لينتخبوا من بينهم رئيساً فلم يفز أحد من الثلاثة عشر عضواً إلا بصوت واحد ! ذلك لأن كل عضو منهم أراد أن يكون الرئيس فانتخب نفسه !

* * *

أحزابنا السياسية وجماعاتنا الدينية أسماء وأزياء لا تجد وراءها مسمى يتميز من مسمى ، ولا جسما يختلف عن جسم . وإن طالب الثقافة ليستطيع أن يذكر لك فى يسر ووضوح جملة الفروق فى الوسائل والغايات بين اليسوعية والماسونية والشيوعية والنازية والفاشية ، أو بين حزب وحزب من الأحزاب البرلمانية فى جميع البلاد الدستورية ؛ ولكنى أتحدى أستاذ الجامعة أن يذكر لى فرقاً أو شبه فرق بين الوفديين والسعديين والدستوريين والمستقلين والوطنيين والشعبيين والاتحاديين ، أو بين الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، والأخوة الإسلامية ، والهداية الإسلامية ، وشباب الإسلام ، ومجد الإسلام ، ومن لا علم لى به من هذه الجماعات . ولئن سألتهم ماذا يمنعهم أن يضموا الشتات ويوحدوا الكلمة ويحددوا الغاية ما داموا إخوة فى الوطن أو فى الله ، ليقولَنَّ كل حزب منهم : ما يمنعنا إلا أن يكون لغيرنا زعامة الأمة ورياسة الحكومة . ولو صحت العصبية الآثمة أن يكون للمتحزبين غاية غير هاتين لأمكن الوفاق وسلمت الوحدة ؛ ولكن العصبية هى داؤنا الموروث لا يحسمه عنا إلا طِبابُه الذى عالجه به الله ورسوله : محو الفروق بالحرية والشورى ، وشفاء الصدور بالأخوّة والمساواة ، ورفع النفوس بالإيثار والتضحية !

ويومئذ يحيا فينا الضمير الاجتماعى فنعمل مرؤوسين ومجهولين ، أصدق مما كنا نعمل رؤساء ونابهين ، فنخلص للأمة كما نخلص للأسرة ، ونحب لعامة الناس ما نحب لخاصة النفس ، ونخرج من حدود العصبية إلى آفاق الوطنية سالكين سبيل القانون إلى غاية الحق ، كما يسلك هذا القطار صراطه المستقيم إلى غايته المعلومة !

احمد حسن الزيات

الأدب العربى الحديث
فى مصر الجنوبية
للدكتور زكى مبارك

كان من توفيق الله — تباركت أسماؤه ! — أن ألتفت إلى الأدب العربى فى السودان ، فقد تلقيت وتلقى الأستاذ الزيات رسائل كثيرة تشهد بأن ذلك الالتفات صادف هوًى فى أفئدة أهل الغيرة على الأدب فى ذلك القُطر الشقيق

ومن الحديث المعاد أن أقول : إن المصريين والسودانيين إخوة ، ولكن يجب أن نعترف صراحةً بأننا فرّطنا فى حق تلك الأُخوّة ، فلم نؤدّ لها كل ما يجب من التعهد والرعاية ، ولم نبذل فى سبيل إعزازها جهداً يستحق التسجيل

ويزيد فى الأسف على ما وقع من التفريط أن البرّ بأشقائنا فى مصر الجنوبية لم يكن يكلفنا عَنَتاً لو أردناه ، فالسودان قريب ، وجوّه مقبول فى أكثر الفصول ، والاتصال بأهله يفتح أمام قلوبنا آفاقاً جديدة من المعانى الأدبية والروحية ، لأنهم يغارون على العروبة غيرةً لا يعرف صدقها إلا من عرف بعض رجالهم الأمجاد ، ولأنهم حفظوا عهد الإسلام فى أوقات قلّ فيها المؤمن الصادق والمرشد الأمين

ومن المؤكد أن السودان قادرٌ على المشاركة الجدية فى إحياء الأدب العربى ، فلأهله الأماجد ماضٍ مجيد فى خدمة اللغة العربية وإن جهله الأكثرون ، ولشبانه فى هذا العهد مطامح وآمال ، وقد يقدرون بعد قليل على الظفر بمنازل أدبية يصل صداها إلى جميع الأسماع بالبلاد العربية

فى السودان تطلّع شديد إلى الاستفادة من تقدُّم العلوم والآداب فى العصر الحديث ، ولهذا التطلع سنادٌ مما ورث أهله من معارف العرب القدماء . وإن دام هذا الحال وسيدوم ، فلن يمضى إلا زمن قليل حتى يصبح للخرطوم وأم درمان مكانٌ بين العواصم التى تحمل مشاعل الثقافة العربية من أمثال : القاهرة والقدس ودمشق وبيروت وبغداد ...

أغلب أهل السودان من أرومة عربية ، فغيرتهم على العروبة غيرة طبيعية . يضاف إلى ذلك مُقامهم فى بقاع توصف عند القصد فى الوصف بأنها الشؤون التى تذرف ماء النيل ، وهو أكوابٌ من الشَّبِر المُذاب

كان من الخطأ البيّن أن نترك أمر التفكير فى السودان لرجال السياسة ، وهم قومٌ لا يلتفتون — حين يلتفتون ! — لغير الاتفاقات والمعاهدات ، ولا يذكرون إلا أن السودان جزء من مصر تعرّض لمصاعب قد تزول بعد زمن قصير أو طويل .

والأمة التى تعتمد على ساستها فى « جميع » الشؤون ، غير جديرة بشرف الاستقلال

يجب على رجال الأدب أن يصرفوا واجبهم نحو السودان ، السودان العربى ، بغض النظر عن صفته المصرية ، فمن التقصير الذميم أن ننسى أن السودان من موائل العروبة ، حين نتحدث عن : المغرب واليمن والحجاز وفلسطين وسورية ولبنان والعراق

والعتب الذى أوجهه إلى أدباء مصر ، أوجهه إلى إخوانهم بسائر الأقطار العربية ، فقد كان يجب على إخواننا فى الشرق العربى أن يذكروا إخوانهم فى السودان ، فما خلا رأس أديب بمصر الجنوبية من شواغل نبيلة تصل عقله وروحه بأقباس العروبة فى هذا الزمان ، وإن لمتّ من أفق سحيق كالأفق الذى تشعّ منه بوارق العروبة بين المهاجرين فى أمريكا الجنوبية

أليس من العقوق أن يجهل بعض أبناء العرب أخبار السودان ، مع أن السودان يعرف من أخبارهم كل شيء ؟

لمصر فرصة من فرص الجاذبية ، وهى مكانتها العلمية ، وللحجاز فرصة أعظم ، لأنه وطن الحرمين الشريفين ، والشام معهد ملك بنى أمية ، والعراق معهد ملك بنى العباس ، فما ذا بقى للسودان حتى يهتم به العرب والمسلمون ؟

بقى للسودان حق شريف نبيل : هو تفرده بالصدق الأصيل ؛ فما تعب العرب ولا تعب المسلمون فى توطيد سلطانهم الأدبى والروحى فى البلاد التى ينبع فيها النيل ، وإنما صدق السودان للعروبة والإسلام بلا دعوة ولا دعاة كأنه أبى أن يتلقى وحى الهداية عن أحد من الوسطاء

السودان العربى حصن حصين ، والسودان المسلم كنز ثمين ، ولو صدق جميع العرب والمسلمين كما صدق السودان لخفّت بليتنا

بالخوارج على العروبة والإسلام فى بلاد لم يحفظ فيها مجد الآباء غير أفراد لا يزيدون عن مئة مليون ، مع أن هَدْىَ العروبة والإسلام كان وصل إلى مئات الملايين

قيل إن أهل السودان وصل عددهم إلى ثمانية ملايين من النفوس ، وأقول إنه ثبت عندى أن أهل السودان وصل عددهم إلى ثمانية ملايين من القلوب ، فما فى عرب السودان رجل بدون قلب ، ولا جاز عند أهل السودان أن يكون الصديق مَلَكا فى المحضر وشيطاناً فى المغيب ، وإنما السودانى عدو أو صديق ، لأنه يكره الختل والخداع ، إلا أن يكون دخيلاً فى الانتساب إلى تلك البلاد !

نصحنى أحد الأصدقاء بأن أحافظ على الصلوات حين أزور السودان ، لأن أهله لا يحترمون غير من يحافظ على الصلوات

فتى أزور السودان لأعرف المدلول لكلمة الفجر وكلمة الشفق ؟

كان أبى رحمه الله يوقظنى من النوم لأؤدى صلاة الصبح قبل الشروق ، وقد مات أبى ، مع الأسف الوجيع ، ولم يبق لى صديق يذكرنى بأوقات الصلوات

فما أسعد المصرى المقيم بالسودان ، لأن الجو هناك يقهره على مراعاة النوافل قبل أن يقهره على مراعاة الفرائض !

السودان السودان ، السودان المسلم ، السودان العربى ، السودان المصرى ، وتلك أواصر لا ينكرها إلا جحودٌ أو جهولٌ

إن الذين غلبونا باسم السياسة لا يستطيعون أن يغلبونا باسم الوجدان ، فتى نعرف قيمة ما خصصنا به من القدرة على الظفر بثقة الأرواح والقلوب ؟

مصر غنية بالعواطف ، ولكنها لا تعرف كيف تنتفع بذلك الغنى الجليل

مصر التى عذّبت زعماءها وهى تذكّرهم بواجبهم نحو السودان لم تقهر واحداً منهم على زيارة السودان

أليس من العيب أن يشهد التاريخ أن السودان لم يزره مصطفى كامل ولا سعد زغلول ؟

إن الشيخ محمد عبده زار السودان وهو موقوذٌ بمرض السرطان ، فكانت تلك الزيارة آية على أنه يعرف معنى الاستشهاد فى سبيل الوطن الغالى ، ومحمد عبده هو محمد عبده ، فتى يجود بمثله الزمان ؟!

أنا أرجو أدباء مصر أن ينسوا الجدل السياسى حول مركز مصر فى السودان بعد أن انتهت الأمور إلى ما انتهت إليه ، وبعد أن صح أن الهجرة إلى السودان لا تستهوى ألباب المصريين لأن مصر تشدهم إلى ثراها الخصيب بقيود مجدولة من وشائج الخيرات والثمرات ، وهم لهذا السبب أزهد الأمم فى الانتقال من مكان إلى مكان

كل ما أرجوه من الأدباء والفنانين أن يذكروا أن بلادنا تنقسم إلى شطرين : مصر الشمالية ومصر الجنوبية ، فإن فهموا هذا فقد يصبح من واجبهم أن يصطافوا فى الخرطوم كما يصطافون فى الأسكندرية . ولم يخبرنى الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد بجديد حين تلطّف فكتب إلىّ يقول : إن جوّ السودان فى يوليه وأغسطس وسبتمبر لا يعرف ما سميته « وقدة الصيف » : لم يخبرنى هذا الصديق بجديد فقد كنت أتابع ما ينشر الذياع من درجات الحرارة فى الصيف وكان يسرنى أن أعرف أن الحرارة فى الخرطوم أقل من الحرارة فى الأسكندرية بنحو عشر درجات

فا تفسير ذلك ؟

تفسيره سهل ، فالصيف فى السودان هو موسم الأمطار ، الأمطار التى تعيش بفضلها مصر الشمالية منذ الأبد الأبيد ، فأين الشاعر الذى تهزه هذه المعانى فيعيش موسماً أو موسمين فى ضيافة الأمطار بالسودان ليعرف أن المصريين القدماء لم يسموا النيل « حابى » إلا وهم يدركون أنه حباهم الخيرات والبركات ، بفضل ما ينقل إليهم من أمطار السودان . والحابى هو الوهاب ، وذلك حرف نقله المصريون عن العرب ، أو نقله العرب عن المصريين .

أين الشاعر الذى تهزه هذه المعانى فيزهد مرة واحدة فى تعقّب أسراب الملاح فى الشواطىء المصرية أيام الصيف ليرى بعينيه كيف تقتتل الأمطار فى أعالى مصر الجنوبية ليكون من حظنا أن نجد الفرص لملاعبة الأمواج فى أسوان والأقصر وأسيوط والقاهرة والمنصورة ودمياط ؟

إن مصر الشمالية فتنت أبناءها أعظم الفتون ، فلم يعرفوا

أن الرواضع مدينة للروافد ، وقد يكون فيهم من يجهل الفرق بين الروافد والرواضع [1]

فتى نصبر على هذه البلادة الدميمة ، البلادة التى قضت بأن نجهل كل شىء من الجوانب الروحية والأدبية فى السودان ، وبحياضه وأرباضه قبائل صحيحة النسب إلى يَعرُب وقحطان ؟

كتب الأستاذ الهادى إلى مجلة الرسالة كلمة تحدث فيها عن زعماء السودان ، فن أولئك الزعماء ؟ لم أعرف منهم غير اسمين اثنين ، مع أنى أعرف مئات الأسماء من أهل الفضل فى مختلف البلاد العربية والإسلامية ، فكيف جاز أن أطوّق بهذا الشُلّ ، وأنا أعرف أن أقبح الأغلال هو غلُّ الجهل ؟

وهل تفردتُ بالجهل حتى أسوق إلى نفسى هذا الملام المنيف؟

لقد شاركنى فى هـذا الجهل جماعة من الفنانين الفضلاء ، ألم تشهدوا بأعينكم أفلاماً مصرية أُخذت مناظرها من البلاد السورية واللبنانية والعراقية ولم يؤخذ منها منظر واحد من مناظر مصر الجنوبية ؟

إن أردتَ التعرف إلى مناظر السودان عن طريق السينما — أو الخَيالة كما يسميها بعض أساتذة اللغة العربية — فاطلب مشاهدة بعض الأفلام الإنجليزية أو الأمريكية ، ولا تنتظر الأفلام المصرية ، لأن الفنانين فى مصر لم يعرفوا أن فى الدنيا بلاداً غنية بالمناظر الطبيعية مثل السودان وهو الجزء الجنوبى من الوطن الغالى

ومع هذا يقال : إن المصريين يقدّمون دروس الوطنية إلى شعوب الشرق !

قد يجيب بعض الفنانين بأن مناظر السودان ممزوجة بسكان السودان وفيهم أقوام لهم أشكال وأزياء ينكرها الذوق الحديث (؟!)

وأقول إن الجمال الحق هو جمال النفوس والقلوب ، لا جمال الأشكال والأزياء ، فالبدوىّ الممزّق الثياب قد يكون أكرم نفساً وأطهر سريرة من الحضرى الأنيق

ولسنا أطفالاً حتى ننخدع بالظواهر الكواذب ، وإنما نحن طلاب حقائق ، وطالب الحقيقة يعلم كل العلم أنها غانية عن التزيين والتلوين ، فمن ظن أنه يؤذينا أو يؤذى تلك البلاد بنقل ما فيها من صور تمثل بعض من يعيشون هنالك على الأساليب الطبيعية فهو جاهل بالقيم الصحيحة لحيوات الشعوب ، وهى حيوات تتأثر بظروف المكان إلى أبعد الحدود

وبأى حق نطالب أهل السودان بأن يُستعبَدوا كما استعبدنا للأزياء الأوربية ؟ وبأى حق يجوز لبعض الموظفين فى السودان أن يدخلوا مكانبهم فى ملابس لا ترى الصيف والشتاء إلا بعيون الأوربيين ؟

وهل ظفر الأوربيون بالسلامة من سواد قلوبهم حتى نحاكيهم فى جميع الشئون ؟

أوربا هلكتْ بسبب التصنع ، فلنرحم أنفسنا من مهالك التصنع ، ولنذكر أن نجاحنا فى ماضينا يرجع إلى فضيلة الاحتكام إلى العقل فى جميع الأمور ، وهى فضيلة حفظت وجودنا سليما على اختلاف الأجيال

أما بعد فإنى أنا عما أريد ؟

أنا ماضٍ فى نظم سلسلة من الأبحاث عن الأدب الحديث فى السودان ، ولكن السودان يصدّنى عما أريد ؟ فكيف وقع ذلك ؟

هنا يظهر نضج العقل فى تلك البلاد ، فما كاد يصل مقالى بالرسالة إلى مدينة الخرطوم حتى سارعت إحدى الجماعات الأدبية هنالك فأرسلتْ إلىّ برقية ترجونى فيها إرجاء الحكم على أدب أهل السودان إلى أن أزور السودان . وكذلك صنع الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد ، فقد كتب إلىّ خطاباً قال فيه : إن أدباء أهل السودان مع ارتياحهم للحديث عنهم يرجون أن أؤجل هذا الحديث إلى أن أزور السودان

فهل تعرفون السرّ فى هذين الاقتراحين ؟

يظهر السرّ جلياً حين تعرفون أنى لم أتأهب لإنشاء بضع مقالات للتعريف بالأدب الحديث فى العراق تيسيراً لمهمة المدرسين الذين سيتقدمون لمسابقة الترقية للتعليم الثانوى إلا بعد أن كتبت لسعادة مدير التربية والتدريس فى بغداد خطاباً أرجوه فيه

(١) الروافد هى النهيرات التى تمد النهر بالماء ، والرواضع هى النهيرات التى تحيا بفضل ما تنقل من النهر من الماء

أن يتفضل فيحدد المعالم الواضحة لأدب أهل العراق ، خوفاً من أن يشط قلمي فيخوض في أحاديث ينكرها أهل العراق

فإذا جاز أن أتحفظ في الحكم على الأدب العراقي بعد أن زرت جميع الحواضر العراقية ، وبعد أن تعرفت إلى جمهرة أهل الأدب هنالك ، فكيف لا أتحفظ في الحديث عن أدب أهل السودان وأنا لم أزر تلك البلاد ؟

الحق أن هذين الاقتراحين على جانب عظيم من السداد ، ومهما يظهر أنه لا بدّ من تأجيل الحديث عن أدب أهل السودان إلى أن أتشرف بزيارة ذلك القطر الشقيق ؟ ولكن متى ! سيكون ذلك بإذن الله في شهر أيلول ، وهو موسم طغيان النيل ، فمنتئذ أزور السودان بصحبة صديق يحبه السودانيون وهو الأستاذ الزيات ؛ ثم أكتب عن الجوانب الأدبية ، ويكتب هو عن الجوانب الاجتماعية ، وبهذا يمكن تسجيل صور صحيحة عن السودان ينتفع بها المتشوفون لأخباره من أبناء الأمم العربية

ثم ماذا ؟ ثم أقول : إني علمت أن جريدة « صوت السودان » أخذت تُصدِر أعداداً خاصة في التعريف بأدباء مصر الجنوبية تمهيداً لتحقيق المشروع الذي فكرتُ فيه ، فأرجو أن يتفضل الإخوان هنالك بإرسال تلك الأعداد باسم : « زكي مبارك بمصر الجديدة » لأستطيع متابعة هذه الدراسات الأدبية ، ثم أقول أيضاً : إني أرجو أن يتفضل أحد أدباء « السودان » فيرشدني إلى ما صدر عندهم من المطبوعات الحديثة مع النص على المكاتب التي تبيعها لأقتني منها ما يساعد على فهم هذا الموضوع الجليل .

والمهمّ هو أن نكون رجال أعمال ، لا رجال أقوال ، فلن يكون الوعد بزيارة « السودان » زُخْرُفاً من القول نلاطف به إخواننا في ذلك القطر الشقيق ، وإنما يجب أن يكون من نياتنا الصوادق أن نعاون معاونة صحيحة على تأريخ الأدب العربي في السودان ، وأن نسجل تطوّر الخواطر والأفكار في ذلك الشطر من وادي النيل ، النيل الذي فتن « إميل لودفيج » فزاره في منابعه ، ثم أنشأ فيه كتاباً خلق للسودان ملايين من الأصدقاء

كان أسلافنا أصدق منا يوم عبَدوا النيل ، وكنا عاقين حين اتّهمناهم بالوثنية ، فما كان التملق بمصادر الخيرات إلا فناً من الثناء على واهب الخيرات

لما هبطت أسعار الفرنك في فرنسا منذ بضع سنين هتف صوتٌ يقول : أيها الفرنسيون ، انتهزوا فرصة هبوط الفرنك وزوروا أقاليم وطنكم الجميل !

وأقول : إن الحرب قضت بأن تقفَل أبواب أوربا في وجوه المتشوفين إلى ما في أوربا من ملاعب الصيف ومراتع الشتاء ، فانتهزوا هذه الفرصة يا أبناء العرب وزوروا أقاليم وطنكم الجميل ، على شرط أن تذكروا السودان ، فهو اليوم أكبر قارئٍ للمؤلفات والجرائد والمجلات ، مع تفرده بالاغتراب ظلماً عن قافلة الوحدة العربية

وفي ختام هذه الكلمة أذكر بالثناء العاطر ما صنع طلبة كلية الآداب ، فقد تألفت منهم بعثة سنة ١٩٣٨ لزيارة السودان كما تألفت منهم قبل ذلك بعثات لزيارة العواصم العربية ، فصنيع كلية الآداب يشهد بأن فيها عقولاً تدرك أن وصل الأمم العربية بعضها ببعض غرضٌ يوجبه الصدق في إحياء الأدب العربي والتراث الإسلامي . وسيكون لكلية الآداب في توكيد هذه المعاني مقامٌ يسجله التاريخ بأحرف مسطورة فوق جبين الوفاء .

زكي مبارك

٣ ـ فى العقـــد
لأستاذ جليـل

١٨ — (ص ٥٠) قال زياد : ما غلبنى أمير المؤمنين معاوية فى شىء من السياسة إلا مرة واحدة : استعملت رجلاً فكسر خراجه ، فخشى أن أعاقبه ففر إليه واستجار به فأمنه ، فكتبت إليه : إن هذا أدب سَوْأً مَن قِبَلِى ...

قلت : إن هذا أدبُ سوء لمن قِبَلى

فى (تاريخ الأمم والملوك) لابن جرير الطبرى : ... فبلغ الخبر المغيرة بن شعبة أن الخوارج خارجة عليه فى أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم ، فقام المغيرة بن شعبة فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فقد علمتم (أيها الناس) أنى لم أزل أحب لجماعتكم العافية ، وأكف الأذى . وإنى والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سوء لسفهائكم ، وأما الحلماء الأتقياء فلا . وايم الله لقد خشيت ألا أجد بدأ من أن يعصب الحلم التقى بذنب السفيه الجاهل . فكفوا (أيها الناس) سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم . وقد ذكر لى أن رجالاً منكم يريدون أن يظاهروا فى المصر بالشقاق والخلاف ؛ وايم الله لا يخرجون فى حى من أحياء العرب فى هذا المصر إلا أبدتهم ، وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم . فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم ، فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار

١٩ — (ص ٣٦١) ... دعنى من شعرك الذى لا يأتى آخره حتى ينسى أوله ، وقل فىّ بيتين يعلقان أفواه الرواة

قلت : يعلقان أفواه الرواة . يقال علق به وعلقه . ومن التفريط أن يغفل القاموس هذا حتى يستدركه التاج . قال : « وما يستدرك عليه علق بالشىء علقاً وعلقه نشب فيه » . وفى الأساس والتاج : قال أبو زبيد يصف أسداً :

إذا علقت قرناً خطاطيف كفه ... رأى الموت فى عينيه أسود أحمرا

ويخاطب الشاعر إنما مرغبه سيرورة بيتيه ، انتشارهما

٢٠ — (ص ٣٤٦) ... أخبرنى عن مالك فقد نُبئت أنك تتحرّى فيه . قال : ياأمير المؤمنين ، لنا مال يخرج لنا منه فضل ؛ فإذا كان ما خرج قليلاً أنفقناه على قلته ، وإن كان كثيراً فكذلك

قلت : فقد نبئت أنك تتجر فيه

٢١ — (ص ١٤٠) قال أبو سعيد المخزومى وكان شجاعاً :

وما يريد بنو الأغبار من رجل ... بالجمر مكتحل بالنبل مشتمل

وجاء فى الشرح : الأغبار إما جمع غبر (بالضم) وهو بقية الحيض ، أو جمع غبر (بالكسر) وهو الحقد ، والذى فى الأصول (أغيار) ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق

قلت : فى البيت تبديل وتصحيف قديمان ، وهو فى قصيدة صالحة رواها أبو على فى أماليه ، وهذه أبيات منها ، وفيها ذاك البيت كما بناه صاحبه :

فى الخيل والخافقات السود لى شُغُل ... ليس الصبابة والصهباء من شُغُلى
ما كان لى أمل فى غير مكرمة ... والنفس مقرونة بالحرص والأمل
ذنبى إلى الخيل كَرّى فى جوانبها ... إذا مشى الليث فيها مشى مختبل
ولى من الفيلق الجأواء غمرتهـا ... إذا تقحمها الأبطال بالحيـل (١)
ســل الجرادة عنى يوم تحملنى ... هل فاتنى بطل أو خمت عن بطل (٢)
وهل شآنى إلى الغايات سابقها ... وهل فزعت إلى غير القنا الذبل
مالى أرى ذمتى يستمطرون دمى ... ألست أولاهم بالقول والعمل؟!
كيف السبيل إلى ورد خُبَعْثِنة ... طلائعُ الموت فى أنيابه العُصُل (٣) ؟!
وما يريدون لولا الحين من أسد ... بالليل مشتمل بالجمر مكتحل؟!
لا يشرب الماء إلا من قليب دم ... ولا يبيت له جار على وجل
لولا الإمام ولولا حق طاعته ... لقد شربت دماً أحلى من العسل!

(١) (الفيلق) رماهم بفيلق سهباء وهى الكتيبة المنكرة (كتيبة جأواء) كدراء اللون فى حمرة وهو لون صدأ الحديد . تقول : جاء فى كتيبة جأواء ، ثم لوى ذنبه مع لأواء ... كل ذلك من الأساس

(٢) الجرادة : فرس الشاعر

(٣) الخبعثنة : الأسد العظيم الشديد ، واخبعثن الرجل : مشى مشية الأسد (المخصص)

ومن طرف أمثاله السائرة — كما يقول الثعالبي في الإيجاز والإعجاز — قوله :

لبس لبس الطيالس ... من لباس الفوارس
لا ولا حومة الوغى ... كصدور المجالس
وظهور الجياد غيـ ... ـر ظهور الطنافس
ليس من مارس الحرو ... ب كمن لم يمارس

٢٢ — (ص ٥٩) لما منع أهل مرو أبا غسان الماء ، وزّجته إلى الصحارى ، كتب إليهم أبو غسان : إلى بني الإساءة من أهل مرو ، ليسقّيني الماء أو لتصبحنّكم الخيل . فما أمسى حتى أتاه الماء . فقال : الصدق ينبئ عنك لا الوعيد

قلت : الإساءة أو الاستناءة في الطبعات القديمة يصلحها ابن أوس الطائي :

وأغرّ يلهو بالمكارم والعلا ... إن المكارم للكريم ملاهِ[1]
يمسي ويصبح عِرضه في صخرة ... شدخت شواة العائب المضاه
قل للعداة الحاسديه على العلا : ... رغماً لأنفكم بني الأستاه[2] !
هو الوفي العهد ظل أراكه ... ولمضمر الشنآن شوك عضاه

٢٣ — (ص ١٧٧)

فلولا ادراك الشر قامت حليلتي ... تخيّر من خطابها وهي أيّم
ولولا ادراك الشر أتلفت مهجتي ... وكاد خراش يوم ذلك يُيتم

قلت : هو الشد في البيتين (أي العدو) وشد واشتد : عدا ، قال :

هـذا أوان الشد فاشتدى زيمْ[3]

ويُيتم هي يَيتم بفتح أوله ، وعين الفعل تفتح وتكسر . والبيتان في حماسة البحتري في قصيدة لأبي خراش في أول الباب (٢٥) (فيما قيل في الفرار على الأرجل) وهذه روايتهما هناك :

فلولا دِراك الشد قاظت حليلتي ... تخيرُ في خطابها وهي أيم[1]
فتسخط أو ترضى مكاني خليفة ... وكاد خراش يوم ذلك ييتم

٢٤ — (ص ٢٥٤) ثم جمل يشدد عليهم ويقول :

إحمل على هذى الجموع حوثره

قلت : يشد عليهم

شد على القوم في الحرب يشِد ويشُد : حمل ، وفي الحديث : ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب : أي حمل عليه فقتله ، وشدوا عليهم شدة صادقة

وروى محققو الكتاب في الشرح عن الكامل : « ثم حمل (أي حوثرة) على القوم وهو يقول » وحمل عليهم مثل شد عليهم.

وجاء في ص ٢٥٥ من هذه الطبعة : « فشدوا عليه شدة رجل واحد فهزموه »

٢٥ — (ص ٧٥) قال القَطامي :

ومعصية الشفيق عليك مما ... يزيدك مرة منه استماعا
وخير الأمر ما استقبلت منه ... وليس بأن تتبّعه اتباعا
كذاك وما رأيت الناس إلا ... إلى ما جر غاويهم سراعا !
تراهم يغمزون من استركوا ... ويجتنبون من صدق المصاعا !

قلت : استجدت القول فرويته ، والقصد هو البحث في (القطامي) في فتحة قافه وضمها ، فقد شغل هذا الاسم فضلاء في القديم وفي هذا الزمان . وسأورد طائفة من أقوالهم لتزول الشبهة ، ويستبين الحق :

قال العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي في نقده طبعة (لسان العرب) : ضُبط القطامي بفتح القاف ، وصوابه بضمها كما صرح به المؤلف في موضعه[2]

وهذا قول اللسان : والقطامي بالضم من شعرائهم من تغلب واسمه عمير بن شُيم . وقد تبع اللسان الصحاح ، قال الجوهري : والقطامي بالضم لقب شاعر من تغلب . . .

ولما وقف العلامة الأستاذ الشيخ محمد بهجة الأثري على

(١) الأغر : الكريم الأفعال الواضحها (القاموس)
(٢) في التاج : قال الأزهري قرأت بخط شمر : العرب تسمى بني الأمة بني . . .
(٣) البيت من أمثالهم ، نسبه أبو الحسن الاخفش في حواشي الكامل إلى (رويشد بن رميض العنبري) ويقال : رميص بالصاد كما في اللسان . والعنبري في الصحاح واللسان والتاج وغيرها . وفي (رغبة الآمل) للعلامة المرصفي : « العنبري غلط ، صوابه العنزي من بني عنزة بن أسد . وكثير من الرواة يقولونه رشيد بن رميض بالتصغير فيهما »

(١) (دراك) الدراك المداركة يقال : دارك الرجل صوته أي تابعه ، (الصحاح) الدراك : إتباع الشيء بعضه على بعض في الأشياء كلها (اللسان) قاظ بالمكان أقام به في الصيف (الصحاح)
(٢) الضياء السنة ٦ ص ٣٥٧

كلمة حق

الدافع إلى كتابتها

للأب أنستاس ماري الكرملي

كنت اشتريت في ١٣ فبراير (شباط) من سنة ١٩٣٤ (كتاب الذخيرة في علم الطب) المنسوب وهماً إلى ثابت بن قرة، والذي نشره حضرة الدكتور جورجي بك صبحي، فطالعته مراراً لأستفيد من الوقوف على مصطلحاته، فخاب أملي، ثم كتبت إلى حضرة ناشره، بعد مضي نحو من سنة ونصف، أي في ٢٩ يونيو من سنة ١٩٣٦:

« بعد إهدائي إليك أعطر السلام وأطيبه، أقول: اقتنيتُ (كتاب الذخيرة في علم الطب)، فألفيتُ نسبتهُ إلى ثابت بن قرة غير صحيحة، وإني أوافق وِدْمَن Wiedmann على أنه ليس لهذا الرجل الشهير كما ذكرت أنت ذلك، ناقلاً كلام ودمن في ص X من مقدمتك الإنكليزية. وأظنه لواحد من الأقباط من المائة السادسة أو السابعة للهجرة، وكان يجهل كل الجهل أحكام اللغة العربية، إذ فيه شيء كُثَار من الأغلاط، وشيء لا يحصى من أوهام المصطلحات الطبية المشوهة أقبح تشويه. ثم جئت أنت، فزدت الطين بلة، والطنبور نغمة، فصحفت المتن تصحيفاً فظيعاً، وحرفته تحريفاً شنيعاً. ولم تجتزئ بذلك، فأتيت بتصحيفات هي بالحقيقة تقبيحات، وأوردت تفاسير هي من أبعد التأويلات عن حقائق العلم، ودقائق العرفان.

فقد ذكر المؤلف مثلاً صفة لداء الثعلب وداء الحية في ص ١١ عدة أدوية، ومن جملتها هذه الصفة: « وكذلك ذباب محرق. وكذلك قشور القنفذ وأصل القصب المجفف يدق ويطلى به ». — فقلت في الحاشية تعليقاً على قشور القنفذ: « البندق. (خط جديد) ». ومعنى ذلك أن أحد الأدباء الذين اقتنوا الكتاب وضع في مكان « قشور القنفذ »: « قشور البندق ». — قلنا: وكان يحسن بك أن تقول: « ما في المتن هو الصحيح وما جاء بخط جديد أي البندق هو الخطأ؛ لأن المراد بقشور القنفذ هنا،

قول العلامة الشيخ ابرهيم كتب في شرحه « بلوغ الأرب » لفخر العراق الإمام الشيخ محمود شكري الألوسي:

القطامي بفتح القاف وضمها كما نص عليه ابن الشجري في أماليه، والمجد في قاموسه، وعبد الرحيم العباسي في معاهده. وقول ابراهيم اليازجي في مجلة الضياء: إن الصواب الضم، وهم من أوهامه الناشئة من غروره وهوسه، وقلة تنبهه ودرسه. والقطامي لقب غلب عليه، واسمه عمير بن شييم، وهو شاعر إسلامي مقل، رقيق الحواشي، كثير الأمثال، حسن التشبيب وهو صاحب هذا البيت:

إنّا محيوك فاسلم أيها الطلل ... وإن بليت وإن طالت بك الطيل

الذي انتحل صدره جميل الزهاوي المتفلسف فقال في مدح أمير عربي:

إنا محيوك فاسلم أيها الملك
ومصطفوك لعرش شاده الفلك[1] !!

وينصر قول العلامة الألوسي شيخ العربية الإمام ابن جني قال في (المبهج) كتابه الذي فسر فيه أسماء الشعراء في ديوان الحماسة: القطامي بضم القاف وفتحها هو الصقر سمي الشاعر (يعني قطاميّنا هذا) به لقوله ...

وضبط العلامة محمد محمود الشنقيطي هذا (القطامي) بالفتح في (المخصص[1]) وضبطه العلامة الشيخ سيد بن علي المرصفي في (الرغبة[2]) بالضم، وقال الإمام ابن سيدة في المخصص[3]: أبو عبيد: القَطامي والقُطامي الصقر لأنه يقطم إلى اللحم[4].

وفي التاج: القَطامي ويضم، الفتح وسائر العرب يضمون

فمن المستحسن في طبعة (المقبل) هذه أن يضبط القطامي — وتلك قصته ... — بالضم والفتح في المتن أو في الشرح.

***

(1) الجزء ٣ ص ٤٢٥

(1) الجزء ١٧ ص ١٣ (2) الجزء ١ ص ٢٠٩
(3) الجزء ٨ ص ١٤٩ (4) يشتهيه

قشور القسطل أى الشاهبلوط، المعروف عند بعضهم بأبو فروة .
وسبب تسميته بالقنفذ أن على قشره شوكا يشبه بعض الشبه ظهر أو قشر القنفذ الشائك

وقال فى الصفحة المذكورة « أو بجلد السمكة الخشنة الجلد وهو السضن » — قلنا : وليس فى لغة من لغات العالم قشر سمكة اسمه السضن (بالضاد) إنما هو السَّفَن ، وهو جلد سمكة تعرف بالأطوم وهى بسين وفاء ونون كما ترى

وقال فى تلك الصفحة : « وتبن يابس محرق مذيف » ولم أعثر على فعل (ذاف) بالذال المعجمة . ولا على اسم المفعول منه (مذيف) . والذى أعهده أنه (مدوف) ، وزان مخوف بدال مهملة

وقال — ونحن لا نزال فى تلك الصفحة — : « ويجب أن يمنع أصحاب هذه العلة جميع الأنبذة والنحلى من الطعام » — والصواب : « والتحلؤ من الطعام — ولا أريد أن أمعن فى تنبيهى إياك على كل ما ورد فى هذا المصنف من المشوهات ، فإنها لا تحصى . ويحتاج القارىء إلى وقت طويل لتحريرها وتحويرها لإعادة النص إلى نصابه . ومع ذلك ، يبقى أنه ليس لثابت بن قرة ، لأنه كان صحيح العبارة ، بديع الكلام ، عارفاً بالمصطلحات الطبية كل المعرفة ، وواقفاً عليها وقوفاً تاماً . ولما كان الوقت غير متيسر لى فى هذه الأيام ، لا يمكننى تصحيح هذا الكتاب

ووفقك الله وسلمك من كل ضر وشر »

الأب أنستاس مارى الكرملى

فأجابنى حضرته بتاريخ ٥ يوليه من السنة المذكورة ١٩٣٦ بكتاب أحفظه عندى وأنشره مصوراً إن يُنكر على أنه كتبه إلىّ لتسود وجوه وتبيض وجوه . فكتبت إليه بتاريخ ١٩ يوليه من السنة المذكورة ما هذا نصه :

أشكر لكم جوابكم بتاريخ ٥ الجارى ، ولقد طالعت المقدمة الإنكليزية ، وعلمت أن السرعة التى أظهرتم بها هذا الكتاب شفيعة لكم لوقوع الأغلاط فيه ؛ لكن هذه الأغلاط جمة ، لا تكاد تسلم منها صفحة واحدة . على أن الأغلاط المتعلقة بالكلام المنثور لا أهمية لها ، إنما الأهمية فى المصطلحات العلمية . وحالما وصل إلى هذا الكنز ، كتبت على أول صفحة منه « إنه ليس لثابت بن قرة ؛ ومن المحال أن يكون له ، لأن عبارته سقيمة ركيكة ، مشوهة ، كثيرة الأغلاط ؛ ومن البعيد كل البعد أن ينسب إلى ثابت . ولا أريد أن أذكر هذه الأغلاط لكثرتها وأنا أنسب هذا الكتاب إلى رجل صنفه فى المائة السادسة للهجرة (لا للثالثة) ، لأن عبارته عبارة ذلك العصر . ثم إنه استعمل « القنفذ » بمعنى « الشاهبلوط » ، بخلاف ما تقول حضرتك ، ولا سيما أنك ادعمت رأيى هذا بأن قلت : إن الأصل لجالينوس هو بمعنى الفندق ؛ إذن ثبت أن القنفذ هو فى عبارة الذخيرة (ص١١) حين قوله: «قشور القنفذ» ؛ هو هذا النبت لا الحيوان ؛ إذ لا يقال للحيوان قشور القنفذ ، وهيهات أن يقال ذلك !

ووجدت ابن العوام يقول : إن القنفذ هو الشاهبلوط ، وفسره كذلك من نقله إلى الأسبانية والفرنسية — راجع معجم دوزى العربى الفرنسى — فإنه يشرحه هكذا شرحاً صحيحاً مما يؤيد كلام العراقيين ، وهذه التسمية لا تعدو المائة السادسة للهجرة .

وهناك شواهد أخر على أن الكتاب ليس لثابت ، وذلك من الألفاظ اليونانية والسريانية شوهت أقبح تشويه ، وأنا أجل ثابتاً من ركوب متن هذه الفظائع ؛ فالألفاظ انتقلت من مصحف إلى مصحف ، ومن ناسخ إلى ناسخ ، حتى جاءت بتلك الصور الشنيعة ، وهى كلها للمؤلف الجاهل لا للنساخ — على ما أظن — .

والبراهين التى ذكرتموها فى النص الإنكليزى ، لتبينوا بها صحة نسبة هذا الكتاب إلى ثابت لا قوام لها ، وليست منطقية ، بل فى نهاية الضعف . وما ذهب إليه العلامة Wiedmann هو الحق بعينه ، وإن لم يبين لنا الأسباب والأدلة التى دفعته إلى ذلك القول . وإنما نسب الكاتب ، أو الواضع ، أو المزوّر هذا الكتاب إلى ثابت بن قرة ، ليروجه على الناس ، كما فعل كثير من الأقدمين مثل هذه الأفاعيل ، وقد اشتهروا بها

أما أن الواضع استعمل مرة شاهبلوطاً ومرة قنفذاً لمسمى

واحد فهذا ناشئ من اعتماده على عدة مؤلفات، وهذا أيضاً لكثير الوقوع في كتب القوم، وعندي شواهد لا تحصى تأييداً لهذا الرأي، ويحتاج هذا التفنيد إلى وضع مقالة طويلة تشرح فيها ملاحظاتي ولولا كثرة أشغالي لفعلت

وعلى كل حال إني شاكر لفضلكم وحرسكم الله

الأب أنستاس ماري الكرملي

هذا ما كتبته بيدي الفانية. وأما أن أحدهم « رأى عند الدكتور صبحي بك كتاباً بخط يدي أسأله فيه أجراً على تصحيح الكتاب، وأن طبيباً بالقاهرة اتصل بالدكتور صبحي بك يغريه على أن يجيب حضرة الأب إلى طلبه، فرفض صبحي بك معتذراً » فالكذب ظاهر من كل كلمة من هذه الكلم. فإن كان بيد صبحي بك هذا الكتاب فليظهره للملأ حالاً بلا أدنى تأجيل، وبصوره وينشره ليصدقه الناس، ولا يزيد على ما عرف به من الكذب على الأموات الكذب على الأحياء، وهذا من الجراءة في مكان ظاهر ظهور النار على العلم

وإن كان أحد الأطباء قد اتصل به ليغريه على أن يجيب طلبي، فلا بد لهذا الطبيب من اسم يعرف به، فلماذا لم يذكره لنا؟ وكيف يكون لهذه الأكاذيب المنمقة المزوّرة المزوقة مسحة صدق، والذخيرة طبعت سنة ١٩٢٨، وأنا كتبت إليه أولى رسالتي في سنة ١٩٣٦، أي بعد مضي ثماني سنوات على طبعه؟ وأي فائدة من تصحيحي لهذا المصنف بعد تلك المدة الطويلة، وقد انتشر بين الناس، وعرفت أغلاطه، إذ شرقت وغربت، ونسفت هضاب العربية وجبالها ودكتها دكا لا يرجى بعده بناية في مكانه؟

وأي طبيب فاقد الحظ يمرض مثل هذا المرض، وقد اشتهر غلط ما طبع وذاع بين الخلائق كلها؟ فكل هذه خزعبلات وترهات لا يصدقها أعظم الناس بلاهة فكيف تجوز على الأدباء؟

ولهذا سكتُّ طول هذه المدة ولم أنطق بكلمة، لأن هذه الأباطيل جبال، لكنها من ثلج، تذوب عند إشراق شمس الحقيقة عليها، ولا يبقى منها أثر. إلا أن بعض إخواني في مصر وفلسطين وسورية والعراق ألحوا علي أن أقول كلمة الحق، فجئت بها، وإن كنت في غنى عنها.

ومهما يكن من أمر، فأنا أنذر اليوم الدكتور جورجي بك صبحي، وشريكه المدافع عنه الأستاذ الفاضل والكاتب النزيه اسماعيل أفندي مظهر، بأن يثبتا ما تقوَّلا عليّ بإبراز الكتاب الذي كتبته أنا واطلع عليه الفاضل الأديب مظهر أفندي[1]. وأن يذكرا لي صريحاً اسم الطبيب الذي اتصل في القاهرة بالدكتور صبحي بك ليغريه على أن يجيب إلى طلبي[2]، وإن لم يفعلا، فإني أقيم الدعوى عليهما في المحاكم المصرية لاتهامهما إياي بشيء أنا براء منه، ولمعاقبتهما على ما لفقا علي بهتاناً وافتئاتاً. وسوف تظهر المحاكمة من الجاني ومن المجني عليه، ومن الظالم ومن المظلوم

وأنا أمهلهما ثلاثة أشهر من نشر هذا الإنذار، ليتسع لهما الوقت وليثبتا مدعاهما المختلق من أوله إلى آخره

أما قول الأستاذ اسماعيل أفندي[3]: « فإن الكتاب الذي أرسله (كذا) حضرة الأب إلى الدكتور صبحي بك يسأله فيه ذلك (أي أجر التصحيح)، قد مُزق وألقي به في سلة المهملات مع الأسف الشديد » فهذا عذر أقبح من ذنب. وكيف يكون هذا الكلام صدقاً، وهما يزعمان أني طلبت به أجراً؟ فلو كان هذا صحيحاً لاحتفظ به الدكتور، أو لنشره بنصه وفصه، إذ هو أمضى سلاح بيده، ليصرعني به ويقتلني شر قتلة؟ ـ لكنه مزقه (؟!) ـ قلنا: « إذا كان التمزيق قد وقع حقيقة، ولعله صادق، فهو لكي لا يبقى أثراً في ربيدته، يطلع من يأتي بعده على جهله لمبادئ اللغة المضرية ذلك الجهل الذي لا جهل بعده. وحينئذ نطلب من الدكتور النصراني أن يحلف على الإنجيل بين أيدي الشهود في المحكمة أنه تلقى مني كتاباً أطلب به منه أجراً على تصحيحي لكتابه الذي نشره ممسوخاً باسم ... ثابت ... بن ... قرة! . وأطلب مثل هذا الطلب من الأستاذ المسلم اسماعيل أفندي مظهر فيحلف على القرآن بين أيدي أولئك الشهود، ويؤكد أنه ... قرأ ... هذا الكتاب »

فإن فعلا ـ ولا شك في أنهما فاعلان بعد أن بينّا

(١) راجع الرسالة في سنتها ٨ ص ١٧٩٥
(٢) الرسالة ص ١٧٩٦
(٣) الرسالة ص ١٧٩٧

أكاذيبهما – فإني أتخلى عن دعواي ، وأكل أمري إلى الله . « والله يعلم إنهم لكاذبون » .

الأدلة التي جاء بها الأستاذ مظهر لإثبات أوهامي

أما الأدلة التي جاء بها الأستاذ الجليل إسماعيل افندي مظهر لتبرير صديقه العزيز الدكتور صبحي بك من الأغلاط التي ركب منها ، فكلها موسومة بسمة المنطق المسكت المفحم ودونك أعجمها عوداً ، وأشدها هولا ورعوداً :

١ – ليس الأب في حاجة إلى دراهم لأنه راهب . وكأنه لا يحل للراهب أن يسند المدارس ، ودور الأيتام ، ومعاهد الشيوخ والعجائز ، ولا مساعدة الأرامل بأي وجه كان .

٢ – إن أصل الكتاب مشوه كل التشويه وهذا وحده يجيز نشر الكتب بأغلاطها من غير تحرير ولا تحوير

٣ – إن الأب تعرض لنقد كثيرين من علماء مصر المشهورين ، وكان عليه أن يسكت ولا يتعرض لهم ويقدس أغلاطهم .

٤ – إن الأب سقط وكبا[1] في دورة المجمع اللغوي السادسة ، فمن اللازم إذن أن يكبو ويسقط إلى آخر نسمة من حياته !

٥ – ومن آيات منطقه ومقنعات كلامه ، هذه الكلمة التي نوردها بحروفها للقارئ[2] : أيليق بنا يا حضرة الأب المهذب أن نسأل : كيف حصلت على لقب لغوي ما دمت تسقط في مباحث اللغة هذه السقطات الشنيعات . . . – قلنا : وهذه الأقوال من أكاذيبه أيضاً ، إذ لم أحصل على لقب لغوي من مدرسة أو كلية أو جامعة ، أو حكومة ، أو دولة ما ، ولم ادع هذا المدعى في ما كتبته . ثم لو فرضنا جدلاً أني حصلت على هذا اللقب ، فهل لكوني سقطت مرة واحدة في المجمع يدل على تمادي سقوطي ؟

فما هذه البراهين النخرة ، الواهية الباردة ، الخالية من أثر المنطق ؟ – إذ كم وكم من الأحفياء الذين سقطوا ! وهل ما تقوله الدكتور فيشر ومن ماشاه هو الصواب ؟ – وقديماً سقط الخليل ابن أحمد وخريجه الليث ، وكبا أيضاً الفراء والأصمعي وابن مكرم والفيروزابادي والزمخشري وكثيرون آخرون . فهل هذا يدل على أنه لا يؤخذ بما قالوا ، لأنهم سقطوا مرة بل مرات ؟

٦ – وقال أيضاً الأستاذ المفوه اسماعيل افندي : « ولقد يدعي حضرة الأب أنه لا يخطئ ، لأنه لو كان يسلم بأن الخطأ واقع من أبناء آدم لما انزلق[3] في نقده إلى حيث انزلق (كذا) اه

قلنا : ولماذا لم يذكر لنا غلطاً واحداً من أغلاطنا في تصحيح عبارة صديقه الدكتور صبحي بك ؟

٧ – وقال أيضاً في ص ١٧٩٨ : « وكلمة أخيرة أتوجه بها (كذا) إلى الأستاذ الفاضل أحمد أمين عميد كلية الآداب ، ومحرر الثقافة فأسأله : هل من اللائق أن يوجه على صفحات الثقافة ألفاظ وعبارات كتلك التي وجهها حضرة الأب إلى الدكتور صبحي بك وهو له زميل في الجامعة وأستاذ مثله فيها ؟

قلنا : جاء في أمثال الفلاسفة العلماء الرومانيين Amicus Plato; sed magis amica Veritas ومعناه : أفلاطون عزيز علي ، وأعز منه علي الحق : وجاء في النهاية لابن الأثير في مادة (ع ط ا) ما هذا نصه بحروفه : « ه . في صفته صلى الله عليه وسلم فإذا تُعُوطيَ الحق ، لم يعرفه أحد . أي أنه كان من أحسن الناس خلقاً مع أصحابه ، ما لم ير حقاً يتعرض له بإهمال ، أو إبطال ، أو إفساد . فإذا رأى ذلك تنمر وتغيّر ، حتى أنكره من عرفه . كل ذلك لنصرة الحق

هذا هو الأستاذ العلامة الكبير ذو الفضائل العلية الممتازة فهو ذا يشار إليه بالبنان ، دَيِّن ، تقيّ ، ورع ؛ فإذا جاء الحق

---

[1] كذا بتقديم السقوط على الكبو . راجع الرسالة ص١٧٩٦ ، وهذا التعبير لا يعرفه إلا سكان جزيرة الوقواق

[2] ص ١٧٩٧ من الرسالة

[3] كذا بهذا الجهل الفظيع للغة عدنان ، ولعل هذا الفعل وارد في اللغة الوقواقية التي يجيدها كل الاجادة ، إذ نسب إلى مئة مثيني واجمع مقالاته في الرسالة ص ١٧٩٥ وهذه عبارته : « فقد كان موعد الاحتفال بالعيد المئيني لقصر العيني قد أزف » مع أن الصواب هو المئوي ولقصر العيني لكن الرجل لايتقن إلا لغة واقواق ، ومن كان في تلك الأرجاء .

انتصر له ولم يُحابِ ، إذ كل ما يعرفه هو الأمانة والصدق ومكارم الأخلاق ، وينسى كل ما لم يكن من هذا القبيل ، وهدفه الحق ، لأن الحق سورة الله ، ومن أحبّ الحق فقد أحب الله ، وتعالى فوق كل شيء على الأرض . وهذا هو المطلوب من كل إنسان على الأرض ؛ والسلام على من اتبع الحق واهتدى ، ولم يمار ولم يُداج ولم يلتفت إلى من سواه عز وجل !

٣ — شكرى لمتوخ للحق تائه

لا أمسح قلمى هذا إلا بعد أداء آى الشكر إلى كاتب كبير النفس ، محب للحق حيثما وجده وكل من احتضنه ، مقدر للعلم والأدب ، ومتوخٍّ للصدق ، أعنى به الأديب أحمد الشرباصى ؛ فإنه نشر فى (منبر الشرق) الصادر فى القاهرة فى ١٧ يناير من هذه السنة مقالة مُحَجَّلةً عنوانها : « من هنا وهناك » ، انتصر فيها للحق المبين وعدل عن محجة الكاذبين ، إذ لم يستحسن ما نشره الأستاذ إسماعيل أفندى مظهر ، وختم تلك الكلمة البديعة قاصمة الظهور ، وقاتكة ما فى مفاسد الصدور ، فبدّدت الأكاذيب والشرور ، بهذه الخاتمة :

« أما تفسير الأستاذ مظهر وكشفه للدافع الذي دفع بالأب إلى نقد الدكتور صبحي فهو — إن صح — حقيق بأن يحدث فى الأدباء ثورة ، وأن يورث بين الكتاب حرباً تقوّم المعوج وتهدى الضال إلى سواء السبيل »

لقد صدق — وايم الله — الأستاذ الشرباصى فى قوله : « إن صح » إذ هذا الأمر ما صح ولن يصح ، إلا إذا غلب الباطل الحق ، وهذا لا يدوم إلا ريثما تنجلى الحقيقة بوجهها السافر الوُضَّاء . ولا يقع هذا الوهم إلا فى من يخدع بالظواهر ، على حد ما يخدع المسافر بالآل أو بالسراب ، ذلكم السراب الذى يحسبه الظمآن ماء . وأما العلماء الحكماء البصراء فهم أبعد الناس عن هذه الخوادع الكواذب . وقانا الله شرها

الأب أنستاس مارى الكرملى
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الفكر والسلطة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أود أن أعجل بالدخول فى هذا الموضوع الذى أثاره الأستاذ إلياس إبراهيم بدوى وأثار به قلم الأستاذ الكبير العقاد ؛ فإنه موضوع يشغلنى كثيراً فى هذه الأيام وكنت على أن أفرد له مقالاً من مقالات « أومن بالإنسان » بعد ما أشرت إليه فى إحداها فإنه جدير بالعناية ؛ إذ التناقض بين السلطة والفكر هو السبب الأكبر فى شقوة الإنسان وكفره بنفسه وبالعدالة وبالخير والحياة . فليكن هذا الحديث ملحقاً بتلك الأحاديث وإن لم يكن له عنوانها .

قلت فى المقال الرابع من تلك المقالات : إن الإيمان بالعلم وتنظيم الحياة الإنسانية بطرقه وإطلاق الأفكار فيه هو الدين الواحد الذى يدين الإنسانية جميعها وتلتقى عليه بأفكارها وأيديها ... وقد جعلها تلمس عرشها المرموق وترف دولتها المأمولة فى مستقبل الحياة

ولكن أين العصا السحرية التى ستفعل فى تعديل شهوات الأمم وغرائزها وتعصباتها الدميمة بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة بأفكارها وأيديها ؟

ذلك ما يسأل عنه رجال التربية والمفكرون فى الدين والاجتماع ، رجال التربية فلاحو حقول الطفولة منطقة النمو الدائم وعُلب أسرار المستقبل ، ورجال الفكر رسامو المثل العليا القادرون على استدراج الناس إليها وسجنهم فيها

ولكن هؤلاء وأولئك لا يزالون بعيدين عن مقاليد الحكم وتسلم مقاود القطيع بينما مكانهم هناك لو صحت الأوضاع . . . ولا يزال محترفو السياسة والدجاجلة بها المتخلفون عن بلوغ القمة فى الفكر والخلق هم الغالبين المتسلطين ... وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس كما كانوا فى القديم

فأنا أعنى بذلك أن يكون رجال الحكم فى كل أمة هم رجال القمة فى الفكر والخلق والقدرة على تربية الشعوب ؛ فإن هذا هو الوضع الصحيح للحياة الاجتماعية التى يستقيم فيها كل شىء، ويؤمن المرء فيها بنفسه وبأمته وبالإنسانية جميعاً ؛ إذ لا يجد فى الحياة تناقضاً بين المثل العليا والقوانين المرسومة فى الكتب والواضحة فى نظام الطبيعة، وبين الوقائع العملية التى يسير بها الناس. وحيث لا تناقض بين ما فى النفس وما فى خارج النفس فهناك السعادة وهناك الإيمان وهناك الأمل والعمل المطرد

إن الذى يؤهل الأب لأن يكون قيما فى الأسرة ، هو بذاته الذى يخول الحاكم والسلطان أن يكون قيما فى مجموع الأسر . وأول صفات الأب الفكر والرشد الممتاز والعدالة بين أبنائه والحب لهم جميعاً

والحكم كالأبوة وصاية وخدمة وقيام على الناس بالرعاية والإصلاح والعدل لا سيادة وسلطان أو مكاثرة أو حب تسخير للناس أو طلب للامتياز عليهم أو اتقاء لشرور سلطة أخرى إلى آخر أسباب الحكم التى ذكرها الأستاذ العقاد وبين تفاوتها فى القرب من الصواب

وكما أن الأب فى الغالب هو أكبر أهل البيت عقلاً وأقدرهم على الكسب والإنتاج والإصلاح ... كذلك يجب أن يكون « الأب الشعبى » أى الحاكم الراعى

وقد أغفل الناس هذه البديهية فى الحكم ووسدوا الأمر إلى غير أهله الطبيعيين ، وصار مالكو رقاب الناس وموجهو الأمم غير رجال القمة فى الفكر والخلق ومعرفة اتجاهات الحياة ، وإنما هم المحترفون للسياسة والجائعون للشهرة والعاشقون للجاه والمناصب والبطش والخيلاء ، والجاهلون بعلوم النفس والتربية وأرصاد القدر وسير قافلة الحياة بالأحياء ... الذين صعدوا إلى المناصب بالمكر والخديعة والدجل السياسى ، لا بالطبع الكريم والفكر الناضج والمجهود الصالح والخدمة النافعة ... الذين نفوسهم نفوس عوام ، أو هم جعلوا همهم تمليق العوام والنزول إليهم بدل أن يرفعوهم بالتربية وقسوة الآباء التى لا بد منها فى بعض الأحيان ...

ومن رأيى أن الأرستقراطية فى الفكر ضرورية للاجتماع ، وليست مقبوحة كالأرستقراطية فى المال . إذ لو اتبع الحكماء

أكثر الدهماء ما خطوا بالإنسانية خطواتها في الترقي، وما وصلوا بها إلى شيء من أسباب سموها وهداها

والمحترفون للسياسة وعشاق المناصب يجعلون همهم تمليق العامة ليركبوها إلى المناصب. أما العلماء والمجاهدون في سبيل الفكر فهم الذين يحملون الناس على أكتافهم إلى واحات السلام والصلاح والانتفاع، وقد يضربهم الناس ويهينونهم كما يهينون الدواب التي تحمل متاعهم، ومع ذلك لا يتخلفون عن أداء رسالاتهم في نقل الناس من سيئ إلى حسن ومن حسن إلى أحسن

إن رجال الفكر المخلصين للحقيقة الباحثين عنها الحالمين بصور الكمال هم وحدهم الذين لا تبطرهم المناصب والرياسات ولا يسمون لها إلا لأنها تمكنهم من تحقيق ما يحلمون به من وسائل الإصلاح وإسعاد الناس. وهم الذين يقيمون السياسة على قوانين الفضيلة لا على الختل والخداع وتصيد المال والخيلاء بالجاه

واعتقادي أن شقاء الإنسان السياسي ناجم من أن رجال السياسة الآن صاروا بعيدين عن الأفكار العليا الحرة، وصاروا تابعين لرجال المال الذين يبعدون عنهم كل ذي فكر وأحلام ومثل عليا في الروح

وعالم المال بؤرة للشهوات المنيفة والغرائز الحادة، والمنافسة الذميمة، وحب التملك، وتبرير الواسطة، والخوف من التغيير والتحول

وقد نشأ من اللقاح بين هذين الصنفين: محبي تملك الرقاب ومحبي تملك المال، ذلك الإنسان السياسي الفظيع الذي يخدع القطيع ويلعب به ويحلبه ويسوقه ويذبحه حين الضرورة الشخصية على مذابح الهوان والظلم. ولن تتخلص الأمم من شقائها وفوضى حياتها إلا إذا اختارت رجال حكمها من بين مفكريها الذين لهم روح تحلم بالكمال، ولهم قدرة عملية على التنظيم والإخراج والتنفيذ، ولهم مع هاتين الهبتين شخصية قوية تصون المنصب وتخلع عليه من هيبتها وسيادتها الذاتية. فعلى الأمم أن تبحث عن هذا الطراز المفكر الحالم العامل القوي الشخصية بين رجالها وشبابها الناشئين، وأن تربيه في مدارس خاصة بتخريج الحكام يكون لها برامج تكفل إنضاج الفكر الحاكم السائس المربي

***

وحين يوجد الفيلسوف الحاكم يكون التناسق والتربية النفسية والحقيقة والرضا عن الوطن و «المواطنين»

وقد كان عهد الرئيس الدكتور «مازاريك» في «تشيكوسلوفاكيا» مثالاً صالحاً للحكم تحت وصاية أرباب الفكر الذين لا يخضعون «للروتين» ولا يتحجرون في قوالب الواقع السيئ

فقد فاق «التشك» تحت حكمه جيرانهم جميعاً حتى الألمان، فاقوهم في التنظيم الداخلي والاقتصادي والرياضي والعسكري والاجتماعي. إذ أنهم كانوا تحت وصاية رجل بصير بآفاق الحياة مدرك اتجاهاتها، بريء السيرة والسريرة من آفات محترفي السياسة الطالبين للمناصب ولو لم يكونوا أهلاً للوصاية للعامة، الحاذقين «المناورات» والمقالب والدسائس مع الجهل بالإصلاح

إذاً فمن الخير للأمم أن يتولى سياستها رجال الفكر وعشاق المثل العليا وأن يطبقوا حياتها العملية على أفكارهم النظرية السليمة

***

ولكن هل من الخير لرجال الفكر أنفسهم أن يوسد إليهم أمر الناس وتدبير سياستهم ومعايشهم؟ إن لذة الفكر المجرد والهدوء الذي يثمر عالمه والأنس به والأحلام فيه والانقطاع إليه شيء عظيم قد يفضله كثير من المفكرين على الاشتغال بصغائر الحياة العملية ومضايقات سياسة الناس وتدبير أمورهم، ولو كان مع هذا جاه ومال وسلطان وقوة وشهرة

بل إن أكثر الذين أخلصوا للفكر والفن يضيقون ذرعاً بحياة الناس العملية ويخلقون لهم جواً خاصاً بهم يعيشون فيه وحدهم ولا يعدلون به سواه. ولذلك قال الجاحظ ما معناه: «ما لذة الأسد بلطع الدم بأعظم من لذة العالم بعلمه». وقال أحد الصوفية: «لو علم الملوك ما عندنا من اللذات لقاتلونا عليها»

وقد صور «جبران خليل جبران» وجداني رجل الأدب ورجل النشب ونظرتيهما للحياة حين قال: «تبادل غني وأديب النشب والأدب، فرأى الأديب ما بيده حفنة من تراب، ورأى الغني ما برأسه نفخة من ضباب...»

فهل يلذ المفكرين أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية المليئة

بصور الكمال والجمال والهدوء إلى دنيا الواقع المليئة بالصخب والتشويش والمتاعب ؟

وهل من الخير للحياة أن يظل رجال الفكر في نظرياتهم وأحلامهم يتصيدونها من آفاق بعيدة ويؤلفون صورها ويدمنون ذلك وينقطعون إليه ، حتى يكثروا أمام الناس صور الكمال ، وأن يتركوا للملوك والساسة العمليين أن يأخذوا منها الجانب الذي يروقهم ويحلو لهم تطبيقه في أساليب حكمهم ؟ أم أن من الخير للحياة أن يتولى رجال الفكر بأنفسهم تنفيذ ما فكروا فيه ووفقوا إليه ولو قطعهم ذلك عن إنتاج الأفكار الكثيرة الرائعة ؟

وهل من الخير للرجل أن يخلد ويذكره التاريخ على أنه مفكر أو فنان أو أن يذكره على أنه حاكم سديد مصلح ؟

إن النتاج العلمي والفني قد يبقى كما هو دائماً في الكتب والدواوين والآثار . . . يراه الناس كما كان في عهد صاحبه . . . ولكن نتاج الحكم والإصلاح مؤقت بحياة صاحبه فلا تدركه الأجيال التالية ، إلا بالحكاية عنه والسماع . وليس فيه خلود ذاتي كالأثر الفكري والفني ، وإنما خلوده بتطبيقه على الحياة العملية . وهذا طبعاً ليس مطرداً ولا كثير الوجود في جميع العصور . . .

فحياة الإصلاح والقوة في زمن عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز مثلاً انقضت بانقضائهما ، وصار الحديث عنها حديث حكاية مضى أشخاصها . وقليل أن يقتدي بهما حاكم آخر ، ولكن حياة أي كتاب ديني أو علمي أو فني تبقى تمثل نفس صاحبها ومنتجها دائماً . . .

* * *

ومع هذا يجدر بنا أن نعلم أن حياة الفكر وحده لا فائدة منها إلا لفترات « الترف العقلي » والترف العقلي كالترف المالي ما هو إلا شهوة . . . شهوة رفيعة

نعم إن للعقل شهوات كشهوات الغرائز ! فالمفكر أو الشاعر الذي يتفرغ لعالمه الخاص ويترك العمل على إصلاح ما يحيط به ما هو إلا كالمدمن المستهتر على الخمر أو القمار ؛ إذ يغيب عن حياة المجموع ولا يجمل بين عقله النظري والعقل العملي صلة

والسؤال الذي يجب أن يقدم قبل البحث في هذا هو : أمن الخير للفرد الفقير المريض المحتاج في الأمة أن تقدم له غذاء ودواء وحياة عادلة أم أن تقدم له لحناً جميلاً أو شعراً رائعاً أو نظرية بارعة ؟

إن الحياة العملية هي الحكم في هذا . . . وقد مضى العلم والفكر القديمان اللذان كانا يدوران على الذاتية واللذة الشخصية وأتى عصر الفكر العملي الذي ينتج محصولاً ينفع الناس في مرافقهم الماشية

فصاحب الفكر التجريبي الآن قد صار صاحب الحظوة والخالد الأثر عند الناس . لأنه يشتغل فيما يعود عليهم جميعاً . . .

وقد لفظت الحياة الحالية كل من يفكر على الأسلوب التجريدي القديم الذي لا ينتج شيئاً يصح انتفاع الناس جميعاً به واحتضنت كل من يقدم لها أعمالاً وأغدقت عليه الثروة والجاه والسمعة . . .

* * *

وينبغي أن ينصرف حديثنا هذا إلى غير المفكرين من العلماء الطبيعيين الذين يكشفون عن أسرار الطبيعة . فهؤلاء يجب أن يتفرغوا ويعيشوا في عالمهم وحده إلا إذا كانت لهم قدرة على الجمع بين حياة الحكم وحياة هذا اللون من العلم

أما الذين يفكرون في النظريات الأدبية ويدرسون الاجتماع ويضعون فلسفته فيجب أن يختار منهم من يستطيع الاضطلاع بأعباء الحكم وتطبيق النظريات على الواقع

ويجب أن يعلموا أنه لا فائدة من أن يضعوا كثيراً من النظريات والأفكار ويتركوها دفينة بين دفات الكتب من غير تطبيق ؛ وإن المفكر الناجح هو من يصنع فكرة ثم يصنع بها أمة أو جماعة

ويخيل إليّ أن كل المجهودات الفكرية التي ليست داخلة في منطقة العمل هي هوى ذاتي وترف عقلي وأقرب إلى الوجدانيات كالموسيقى والألحان

إننا لا نمسك ديوان شعر أو نسمع ألحان الموسيقى أو نقرأ قصص التاريخ إلا إذا فرغنا من أعمالنا الماشية وأقبلنا على أوقات

الفراغ نستمتع بها ، ولن يقبل على هذه الألوان فى كل وقته إلا هاو مستغرق أو محترف مرتزق

وقد يكون من العجيب عند بعض الناس أن يعلموا أننى أعتقد أنه يجب للاصلاح السريع فى مصر أن نضحى بعيشة الترف العقلى مدة موقوتة تغلق فيها جميع المعاهد العالية مدة سنة أو سنتين نحشد جميع أساتذتها وطلابها للخدمة العامة والاشتراك فى حركات الإصلاح البدائى ونترك التفرغ للبحوث الفكرية والهوايات الفنية ونتفرغ لتدبير أمور الجمهرة الجاهلة من هذه الأمة حتى يعلو مستواها ويتقارب مع مستويات الأمم التى سبقتنا فى التعليم والإصلاح

قد يبدو هذا غريباً عجيباً ، ولكن هو ما أعتقده . لأنى أرى وجود المريض جداً بجانب الصحيح جداً يفقد بهجة الحياة لدى الصحيح ، ويؤلم المريض بالحسد والنظر المحروم ؛ وأرى أن الأولى للعالم والمفكر ألا يوغل فى علمه وفكره ، ويترك غيره جهلاء لا يفهمونه ولا يقدرونه

ووجود عدد من جهابذة العلماء عندنا بجانب ملايين الجهلة التعساء المرضى هو بذاته كوجود الميادين والشوارع الجميلة فى المدن المعدودة فى مصر بجانب آلاف القرى التى تقام من الطين والسرجين والأحطاب والمستنقعات ...

فعلى هذا ينبغى أن يقدر أدباؤنا ومفكرونا أن عملاً صالحاً يقدمونه فى حكم صالح يسمون إلى أن يقوموا عليه ، أولى ألف مرة من تقديم قصيدة رائعة أو مقالة بارعة أو فكرة عبقرية غير عملية ... إذ أن هذا العمل الصالح المثمر أهنأ لدى آلاف من القلوب المحكومة ، وأسرع إلى إسعادها ، وأدنى إلى أسلوب الله فى نفع عباده ، إذ أنه يعمل لهم كثيراً فى تدبير الطبيعة ولا يتكلم ... وإن قانوناً عادلاً يضعه لأمته حاكم رشيد لأنفع ألف مرة من جملة كتب تعرض أفكاراً طلية للترف العقلى . لأن القانون العادل يضمن ضرورات الحياة للناس جميعاً . أما كتب الأفكار ، فتضمن بعض ترف الحياة لبعض الناس ...

ولو ترك محمد عليه الصلاة والسلام القرآن من غير أن يترك أمة قد قام عليها بالتربية والحكم والتوجيه والتعليم لظل القرآن ككتاب من الكتب لمؤلف من المؤلفين ... ولكنه صنع أمة تجسدت فى أشخاصها معانى هذا الكتاب ومشت تسمى بهم وصاروا هم كلمات حية تشرح آياته ..

وأظن أن سعادة الرجل الذى ينجح فى تطبيق مشروع يسعد الناس تربو كثيراً على سعادته بإخراج أثر فكرى أو فنى حبيس فى الورق

فليحمل أدباؤنا ومفكرونا نصيباً من الخدمة العملية ، وليروضوا أنفسهم على إسعاد القلوب بالأعمال كما يسعدون الآذان بالأقوال ، وليجتهدوا أن يحققوا معانى مقالاتهم فى أشخاص وأعمال مجسمة ، وليسموا دائماً إلى أن يكون حكامنا وزعماؤنا هم رجال القمة فى الفكر والخلق حتى نلائم بين ما فى النفس وما فى خارج النفس .

عبد المنعم خلاف

الغنـــاء والموسيقى
وحالهما فى مصر والغرب
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ١ —

هذه أولى أربع كلمات فى الغنـاء والموسيقى ، وحالهما فى مصر والغرب ؛ وهى ملاحظات عامة لم يُقصد بها إنسان معيَّن ، وليس فيها محازبة لمذهب خاص ، وعرضها قد لا يخلو من فائدة

ذانك الفنان يجوز اعتبارهما من وجهين : القواعد الفنية[1] ، وبواعث الطرب الراجعة إلى ماهية الموسيقى والغناء الأصلية ، أى الدلالة الصوتية على الأحاسيس والخواطر[2]

فالغناء تطريب فى الصوت فى كلام الفنى . والكلام العادى كلمات تدل بذواتها وبنسقها على خواطر وأحاسيس تتلوّن فيه تلون الحال الفكرية النفسية فى المتكلم ؛ فيتلون صوته بالطبع والتنبية إذ يحدث فيه نبرات متفاوتات ، ويجرى فى سرعة وبطء وخفض ووقف ، وذلك كله يقوى دلالات الكلمات والسياق على الخواطر والأحاسيس ، لأنه يزيدها وضوحاً وتأكيداً من حيث لا يشعر المتكلم . فهذا الذى يَحدث فى صوته دلالة صوتية تصاحب الدلالة الكلامية ؛ وهى ماهية الإلقاء ، وقد تكون أصدق من دلالة الكلام الذى تصاحبه : فى مثل عبارة معناها ثناء تلقى بصوت يدل على أن المراد بهـا مُزاح ساخر ؛ وفى مثل قول غاضب لمغضوب عليه : تفضَّل ، بصوت يعنى الطرد مع أن الكلمة مستعملة فى التكريم

وما الغناء ، على الإجمال ، إلا تطريب يُعلى تلك الدلالات الصوتية فى اللحن المطابق لمعانى كلام الأغنية ، ولمقتضى المقام المعين بهذه المعانى ؛ فتعلو الدلالات درجات متفاوتات على مستوياتها فى الكلام المغنَّى به لو أن صاحبه الفرضى تفوَّه به ، من غير تطريب ، فى ذلك المقام . يؤيد هذه الحقيقة أن الأغنية إذا جاد لحنها ، وأجاد غناءها صوت حسن موافق ، كانت معانيها أعظم وقعاً عند السامع منها إذا هو قرأها هادىء النفس ، أو سمعها مقروءة بلا ترنيم ولا ترتيل . فمن أين تعلو عنده منزلة هـذه المعانى والأغنية واحدة على كل حال ؟ أفلا نرى أنها تشرف بتقوية الدلالة الصوتية المبينة عن معانى الكلام وعن حقيقة المراد به ؟ ليس شك فى أن السر والسبب المهم هو تقوية هذه الدلالة ، والأمر صحيح واضح لا فى الغناء وحده بل فى الخطابة والتمثيل أيضاً

تلك الدلالات الصوتية تصاغ فى نغمات متواقعات محكمات على ضوابط فنية ، لتنسجم بالإيقاع فى لحن يبرز معانى الكلام المغنى به ، وعلى قدر المطابقة الواقعة بين نص الدلالات ، أى معانى اللحن ، وبين معانى هذا الكلام يطيب الغناء ولو لم يكن صوت المغنى من أجود الأصوات

* * *

بديهى أن الملحن لا ينطق بالكلام المراد تلحينه ، ولا يستعين أحداً ينطق به أمامه ، كى يلاحظ ما يقع فى مثل هذا النطق من دلالات صوتية ليرقمها فى نغمات يصوغها لحناً ، لكنه إذا كان حقاً فناناً فقهاً فإنه يتفهم ما فى ذلك الكلام من مقاصد وأغراض ، ناظراً فى دقائق ما يكسوها من معارض وأثواب ؛ ويتأمل ما يصور من صور حتى يتوهمها أمام ناظريه ، وحتى تستقر فى بصيرته

(١) كالسلم والمقامات ، ومواقع النغمات على المعازف ، والايقاع وضبط الأوزان ، وقياس الألحان بالتك والدم ، أو بالنوتة وما إلى ذلك .

(٢) هنا يحسن التنبيه على الرأى العلمى القائل بأن الأحاسيس يردها التحليل المتناهى إما إلى غريزة حفظ الذات ، وإما إلى غريزة حفظ الجنس ، كما يرد إليهما سائر الغرائز ؛ وأن الغرائز والأحاسيس أصلها معقولات كثر ترددها فى الذهن وسلوكها مجاريها العصبية حتى استحالت غرائز وأحاسيس ؛ وأن المعقولات والأحاسيس فى الحقيقة يلازم بعضها بعضا فى العقل الباطن ، لأنها من حياة النفس الكلية والنفس واحدة ، وحركاتها متصلة من طريق التداعى وإن بوبوا ظواهرها ، وميزوا بكل باب ملكة من ملكاتها ، تسهيلا لدراستها وتحليل أحوالها .

وعقله الباطن ، وما تصف من أحوال نفسية حتى يجدها كأنها فى نفسه هو ؛ ثم يأخذ فى التلحين متى تهيأت له ملكاته ، فيأتى اللحن بطبيعة الحال حاملاً تلك الدلالات ، مطابقاً بها معانى الكلام على قدر حساسات اللحن وحسته ، ومواهبه ومحصوله الثقافى ؛ وإذا كان الكلام أغنية من إنشائه ، فقد يكون أقرب إلى السداد فى إنشائه لحناً لها

وشأن المغنى فى التمكن من اللحن وتجويد غنائه شأن الملحن فى تلحينه[1] ، وذلك هو الأساس والصراط المستقيم إلى الإجادة يهديهما إليه الطبع ونصيبهما من تحصيل أصول الفن ومن فهم معناه ، ومن لم يهتد إليه ويوطد صنيعه على هذا الأساس المتين جاء بشيء غير طائل

أما الموسيقى ، ففيها الدلالات الصوتية المصوغة فى اللحن الذى يخرجه العازفون من المعازف ؛ وهذه الدلالات أملتها نفس ملحنه ، إما أخذاً عن أحاسيس وخواطر تضمنها الكلام الذى أنشأ له اللحن ، وإما تعبيراً عن حستها الذاتية حين تيقظت فيها ملكة التلحين ، وهى حالة استكنت فى أعماق تلك النفس بواعثها من خوالج صاحبها فى مدى حياته ، ومن أخيلته وخواطره إزاء ما شاهد فى دنياه وما أدرك من الكون بشعوره وعقله أو بفضل غيره[2]

تلك الدلالات تؤديها معازف تختص بها ، معازف يحدث من تناسق أنغامها السياق الأساسى فى اللحن بينا ترسل معازف أخرى أنغاماً مساعدة ، تتلبّس به متنوعة فيه ، متفاوتة ارتفاعاً وانخفاضاً ؛ فهذه تصاحب السياق الصوتى الأصلى وتزينه بتلوينها الملائم ، إذ تجرى معه مؤتلفة ، كصورة الظل مع صاحبه ، فتزيده جمالاً وروعة ، فهى مصاحبة أو تصوير[1] . فما اللحن فى الحقيقة إلا تعبير بدلالات صوتية مدلولاتها خوالج وخواطر وأخيلة جالت فى نفس ملحنه ، أو استعارتها نفسه من كلام لغيره ، من فحواه ودقائق معانيه وما تصف . ومن هنا نظروا إلى اللحن الذى يعبِّر هـذا التعبير ، ويصور هذا التصوير ، نظرهم إلى الكتابة فقالوا : الإنشاء الموسيقى ، وميزوا بين إنشاء موسيقار وإنشاء موسيقار آخر ، وعرفوا لكل طابعه الخاص

* * *

الفهيم المستمع إلى موسيقى جيدة ، لا يصاحبها غناء ، تصل ألحانها إلى سمعه غير مقيدة دلالاتها الصوتية ، أى معانيها ، بدلالات لفظية ، ولذا تجد نفسه بعض الحرية فى فهم هذه الألحان الموسيقية التى تحرك فى وجدانه خوالج وأحاسيس ، وتثير تداعى الصور فى مخيلته والخواطر فى ذهنه ، فتذهب روحه مذاهبها فى تأويل الدلالات الصوتية ؛ فإذا سكنت إليها طرب ووجد الأريحية ، وإذا هو آنس منها ما يعيب اللحن أو العزف أو لم يفهمها ، أو لم توافق طبعه ، فإنه لا تأنس إليها روحه ، وعلى قدر موافقتها وسلامتها أو عيوبها يكون الاكتراث لها ، أو الاستكراه والنفور منها

أما الغناء الذى تصاحبه الموسيقى ففيه الدلالة اللفظية تفرض تأدية معان معينة ، هى معانى الكلام المغنَّى ، على الدلالتين الصوتيتين : دلالة الغناء ودلالة العزف الموسيقى معاً ؛

(١) كذلك الكاتب ، يفكر فى موضوعه ويشحذ له ذهنه وقريحته ، ويهيىء نفسه حتى يتصوره قائم البناء سوى الهندسة ، قبل أن يمسك القلم لكتابته ؛ فإذا كتب بعدئذ أجاد على قدر ملكاته ، ومعلوماته وأدواته ؛ أو هو يرقم لكتابة موضوعه — من مقال طويل أو رسالة أو سفر — منهجاً يرتب فيه مقاصده وأغراضه ويحكم الارتباط والتعاق والنسبة بينها ، ليكون تحت نظره كالرسم الذى يضعه المهندس ليبنى على مثاله ؛ فقد رأى بعضهم أن للكتابة ثلاثة أركان : أولها الاختراع ، وهو التفكير فى الخواطر والأحاسيس التى تكون المقاصد والأغراض ، كالمواد الداخلة فى البناء . وثانيها الترتيب ، ترتيب هـذه المقاصد والأغراض فى منهج كالرسم للبناء . وثالثها العبارة ، وهى الكتابة والانشاء فى الموضوع بالأساليب البيانية لتزيين صرحه كزخرفة البناء بأنواع الطلاء وغيره . فإذا كانت المواد جيدة وهندسته جميلة زادته الزخرفة جمالا وإلا ضاعت فيه .

(٢) ولذا جاز أن يقال إن الفن إلهام من تلك البواعث المستكنة فى نفس الفنان ؛ وبالنظر إلى أصناف التحف الفنية ، وهى ثمرة نفوس الفنانين ، =

= صح ما أورد ناقد فاضل ضمن مقال له فى العدد الأسبق من الرسالة أو ما قبله ، من أن الفن هو « صورة الكون فى نفس إنسان » وهو « تبلور الحياة فى حس فنان » .

(١) Harmonie

فلا بد من المطابقة والائتلاف التام بين هذه الدلالات الثلاث حتى لا يُعكّر نبوُّ إحداها ونشاز الأخرى صفاء اللحن ونقاء الغناء والموسيقى جميعاً

* * *

والكلام الذي يغنّيه المغنّي بمصاحبة الموسيقى يصل مع صوتيهما إلى آذان المصغين البصيرين ، ويتعيّن معناه اللفظي بيّناً في أذهانهم فيقيد حرية نفوسهم كل التقييد ، في فهم تينك الدلالتين الصوتيتين فهماً ينافره ، وبذلك يمنعهم من تأويلهما تأويلاً يجعل لهما وقعاً عندهم ؛ فإذا لم يكن الائتلاف تاماً بين معاني كلام الأغنية ومعاني لحنها وغنائها ومعاني موسيقاها حال هذا العيب الشنيع دون الطرب ؛ وربما سبب الاستكراه والنفور ولو جاد العزف الآلي وصوت المغني

والمستمع السليم الذوق قد لا يحلل بعقله ما يسمع من الغناء والموسيقى مثل هذا التحليل ، ولكنه لا يطرب من غناء وموسيقى تتنافر فيها تلك المدلولات اللفظية والصوتية ؛ لأن عقله الباطن يدرك تنافرها ، أو لأنها لا توافق مزاجه الروحي، وإن لم يكن بينها تنافر، أو لعدم وضوح معانيها له ، ومدار ذلك كله هو الإدراك والذوق

* * *

ولكن الحقائق المتقدم بيانها ما مبلغ علمنا بها يا ترى؟ وهل يُلتفت إليها في بلادنا؟ الجواب في الكلمات الآتية في الأعداد التالية ، وحسبنا الآن إشارة

لما دال الدهر القلّب ، وظعنت أسباب الانحطاط على الشرق ، وتفشّاه الجهل ، وذهبت الأخلاق ، وضاعت فيه الآداب والفنون ، لم يبق بعدها من الغناء والموسيقى ، في الفترة المديدة التي سبقت بدء النهضة المصرية ، سوى بقايا ضئيلة هنا وثَمّ ، مستها الأسواء ولمّا نمعن في البحث عنها وعن أصولها وضوابطها ، ولم نحسن الاعتناء بما بين أيدينا منها ، ولم ندرك ماهيتها ونبني عليها ؛ وليس لنا بد من طور آخر نقضيه متلمسين الفن الحق ، متعثرين في سبله

نعم ، فإن كثيراً من الملحنين والمغنين والموسيقيين والمستمعين — بقطع النظر عن الأقليات التي تدخل في باب الاستثناء — لا يزالون عندنا من بيئات دون الوسطى ، ضئيل محصولهم ، أولية عقولهم ، ساذجة نفوسهم ، سقيمة أذواقهم . وقصارى البارع من هؤلاء الفنانين أن يتقن تقليد ما ترك الجيل السابق ، أو أن يعبث بشيء من بعض آثار القدماء ، أو أن يمسخ الفن بما يزعم أنه تجديد وابتكار . وكثير من النقاد مثلهم ولم يفطنوا لمواطن الأدواء ، فليس في مقدورهم أن يصفوا الدواء ، ونقدهم مفترض يساير الشهي ويتحرى مظان النقمة ، وخيره أقل من شره ، ولو تنزه وصح لكان في مصلحتهم ومصلحة الجميع على السواء .

محمد توحيد السلحدار

ذكرى محمد محمود باشا

في ليلة الأربعاء الماضي وعلى منبر الجامعة المصرية أعلنت مصر ممثلة في زعمائها ووزرائها وأدبائها صادق رثائها وخالص وفائها لفقيدها الجليل النبيل محمد محمود باشا . وكان من خير ما قيل في حفلة التأبين هاتان الكلمتان للشاعرين الكبيرين عباس محمود العقاد وخليل بك مطران ؛ والرسالة تسام بنشرهما في هذه الذكرى الجليلة

قال الأستاذ العقاد :

أكبرتُ في غيب الزعيم محمد … من كان يكبر حاضراً في المشهد
حجب الردى عنا بشاشته ولم … يحجب بشاشة ذكره المتجدد
هيهات ينتقص الزمان مجادة … للسيد بن السيد بن السيد
فخر الصعيد ، وفخر مصر جميعها … بالرأي ، والخلق القويم الأيّد
من يرسل المثنى عليه ثناءه … مسترسلا في القول غير مقيد
جمع القلوب على المديح وإن مضت … نهجين بين مصوب ومصعد
لم نقض في هذى الديار قضية … ومحمد مما قضوه بمبعد
ملء النديّ وإن تطامن دقة … كم دقة شحذت مضاء مهند

في دارة (الفلكي) قبلة كوكب … يعلو على رصد المنايا الرصّد
تطوى المغارب جرمه وشعاعه … متألق في أوجه لم يخمد
أكبرت مطلعه ولم يك طالعي … في كل حين عنده بالأسعد
ورأيته أقصى وأقرب رؤية … فإذا البروج لكوكب متوحد
مهما اختلفت حياله لم يختلف … سمت السماء ولا علو المقصد
متحرر مما يعاب كأنه … متقيد المسعى ، ولم يتقيد
شفت سرائره فكل سريرة … فيه تضيئك من سراج موقد
فإذا عهدت المحض من عاداته … لم تلق يوماً منه ما لم تعهد

عز الكنانة فيه فهي فجيعة … تبلو الكنانة في الضمير وفي اليد
مافي مروءات الشعوب مروءة … إلا رعته بنظرة المتفقد
البر ، والمشهود من آلائه … بين المحافل دون مالم يشهد
ومعاهد التعليم بين مشجع … للعاملين بها وبين مزود
وإغاثة الأدب الهيف وإن نشا … سرداً فعدد ما بدالك وامرد
ونزاهة اليد واللسان هداية … للمهتدين ، وقدوة المقتدى
وصراحة الأخلاق مااشتملت على … مستغلق فيها ، ولا متأود
والعزة الشماء ، إلا أنها … كالشاهق المخضر لا كالجلمد
وسياسة الوادي ولم يك رابحا … منها سوى الشجن المقيم المقعد
وعزيمة لاتنكره الشورى وإن … كانت لتنكره حيرة المتردد
شيم وآلاء إذا ما استفردت … كالقطب عزت في ازدواج الفرقد

عز الكنانة والعزاء ليعرب … ما بين مُتْهِم قومه والمنجد
كم ذاد عنهم والخطوب بمرصد … والشمل بين مشرد ومبدد
للحق ، لا لخبيئة مطوية … تلقى العداة الرابضين بموعد
ولنصرة الإسلام لا لعصابة … تسعى إلى الإسلام سعى المفسد
سمح على ما فيه من عصبية … سهل ، وإن أعيا قوى المتشدد
لا يستطاع على الخصام عناده … وعليه تعويل الأخ المتودد
من أكسفورد ولو نماه معشر … للأزهر المعمور لم تستبعد
فيه محافظة ، وفيه طرافة ، … وأراه في الحالين غير مقلد
ورث الحمية كابراً عن كابر … والأريحية منجداً عن منجد
غيث الفلاة ونيل مصر كلاهما … سقياه من أصليه أعذب مورد
فإذا بكت مصر ففير ملومة … وإذا الحجاز بكى ففير مفند

رحم الإله محمداً وأثابه … في خلده الباقي ثواب مخلد
كأن السبيل السرمدي سبيله … فعليه رضوان الإله السرمد

عباس محمود العقاد

وقال الأستاذ مطران :

هل يعالى الذرى مكان اعتصام … بعد مهواك يا رفيع المقام
ما انتفاع النسر المحلق في الأو … ج ويرمى به من الأوج رام
أي رزء ألم بالعـالم الفر … د فألقى الخشوع في الأعلام
أى خطب أصاب أوحد قوم … فأشاع الأحزان في أقوام
ما جناه الردى بحجبك عنهم … سبقته جنـاية الأسقام
فتحملت في ليـال طوال … ما تحملته من الآلام
كان عمرٌ قضيته في اضطلاع … بالمعالي وفي مساع جسام
فيه أسرفت بالعزائم حتى … لكأن المبذول بعض الحطام
جدت في حبك البلاد بأغلى … ما به جادها شهيد غرام
هم بلغتك أسمى الأماني … من ثراء ورتبة ووسام
وأعزت بك البلاد وإن لم … تقض أقصى ما رمته من مرام
فلأمر عاق المهيمن حقاً … عن قضاء ومطلباً عن تمام

مصر تبكى محمداً بفؤاد ... أثخنته السهام بعد السهام
كلما لاح كوكب فى ذراها ... كوّرته حوادث الأيام
ينقضى الدهر وابن محمود باق ... خالد الذكر فى بنيها العظام
الزعيم الخليق منهـا ولا مَـ ... ـنٌّ عليه بالحب والإكرام
الرئيس النزيه فى كل معنى ... من معانى ولاية الأحكام
الوزير النهاض ما حَزَبَ الأمـ ... ـر بأعبائه الثقـال الضخام
الخطيب الذى لمنبره العا ... لى جلال كهبط الإلهام
الأديب الذى إذا جالت الأقلا ... م جَلَّى فى حَلبـة الأقلام
الرصين الرزين إلا إذا ما ... عجل الرأى خطة الإقدام
العـدو المبين المتجنى ... والنصير الأمين للمستضام
الولى الأوفى لكل موال ... والمذم الأكفى لراعى الزمام
رجل كامل الرجولة لا ير ... مى بعزم إلا بعيد المرامى
ليس يُعنى بالترهات ولا ينـ ... ـظر إلا من المكان السامى
طبعته شمس الصعيد ولكن ... لم يطل منه محمل الصمصام
والنفوس الكبار ليس عليها ... حرج من تضاؤل الأجسام
أسمر اللون يعتريه شحوب ... قد ترى فيه صُهبة الضرغام
يتلقى الأحداث عسراً ويسراً ... وعلى الثغر منه وشْك ابتسام
ليس بالأصْيَدِ العيوف ولا بالـ ... ـلبِق المجتـدى تحايا الأنام
شيعته البلاد والحزن غلا ... ب على الصبر في الدموع السجام
جيشها ناكس السلاح تماشـ ... ـيه وئيـداً شجية الأنغام
وعلى جانبيـه مشترفات ... جزعات مخفوضة الأعلام
ووراء السرير تَطَّرد الأفـ ... ـواج والهـام تلتقى بالهام
أمة أزْجت الجنازة فى أسـ ... ـنى مجال الإكبار والإعظام
يا محييٍّ محمد وهمُ صفـ ... ـوة مصر التقت بهذا المقام
عظم الله أجركم إن وعد ... الله حق للصابرين الكرام
يا شقيقيه إن بيت سليما ... ن بأن تبقيا متين الدّعام
يا بنيـه بسنة الله لوذوا ... فبهـا برء كل جرح دام
قاسمتكم مصر الرزيّة فيه ... وعلى قدرها مدى الاقتسام
فاخلفوه بالحق واتخذوا منـ ... ـه لكم خير مرشد وإمام
إن تلك الحياة إن تصلوها ... لحيـاةٌ جديرة بالدوام

خليل مطران

نشيد اللغة العربية القومى

للأستاذ محمد سعيد العريان

تلحين شريف طاهر

[لمناسبة مهرجان النشاط المدرسى الذى تقيمه وزارة المعارف فى هذا الأسبوع تقدم هذا النشيد لقراء العربية فى مختلف أقطارها] .

لغتى : دينى وطنى

لغةُ الأمجادِ مُنذُ يَعرُبِ : لغتى
ولِسانُ الحقِّ من عهد النبي : لغتى
مجدُها مجدى وتاريخ أبى : لغتى

لغتى : دينى وطنى

لغةُ الرحمنِ فى قرآنِه : لغتى
ولسانُ الوحيِ فى تِبيانِه : لغتى
وبيانُ الحرِّ عن وِجدانه : لغتى

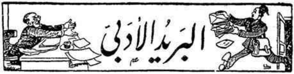
لغتى : دينى وطنى

يَغفُلُ التاريخُ فى تَسطيرِه ... عِزّةَ الماضى ولا تُغْفِلُنى: لُغتى
يَعجِزُ الفنّانُ فى تعبيرِه ... عن معانيه ولا تُعجِزُنى: لُغتى
ويَضيقُ الفنُّ فى تصويرِه ... عن معانيه ولا تَخذُلُنى: لُغتى

لغتى : دينى وطنى

وَسِعَتْ كُلَّ طريفٍ وتَليدٍ : لغتى
وَوَعَتْ لى عِزّةَ الماضى المجيد : لغتى
ضَمِنَتْ لى فى فَمِ الدنيا خُلودى : لغتى

لغتى : دينى وطنى



فى مقالة الأستاذ السباعى بيومى

فى القسم الثالث من مقالة الأستاذ المبجل جمع نخور على نخورين فى قوله : « ثم سل تلاميذى الذين تتحدث عنهم يخبروك بما يفحمك مخلصين صادقين ونخورين بتلمذتهم لى ... » والعربية إنما تجمعه على نُخُر ، قال طرفة :

ثم زادوا أنهم فى قومهم   غُفُر ذنبهم غير فُخُر

ودخلت (هل) فى قوله : « فهل لا زلت على هذه المباهاة » على نافٍ ، وهى لا تدخل على نافٍ أصلاً كما قال الرضى . ودخلت (لا) على ماض غير مستقبل فى المعنى ، ولم يكرر ، وقد بين (المغنى) فى الحرف (لا) ما بين . وجاءت (إليك) فى قوله : « ومع هذا فإليك رأيى فى تلك المباهاة » . وفى (الكتاب) : « وإليك إذا قلت تَنَحّ » قال :

إليكم يا بنى بكر إليكم   ألمّا تعرفوا منا اليقينا

وإليك من أسماء الأفعال غير المتعدية إلى المأمور كما ذكر (المفصل) . قال التبريزى : « لا يجوز أن يتعدى إليكم عند البصريين ، لا يقال إليك زيدا لأنه معناه تباعد »

من النفع والخير أن يخطئ الكبار فى حين من الأحايين حتى ينقدوا فتغنى اللغة ويستفيد الناس ...   (ناقد)

مراجعات لغوية

نشرت الرسالة كلمة للباحث الفضال « ا . ع » فى التعقيب على ما قلت به فى توجيه ضم الظاء من كلمة « الظرف » بمعنى اللطف . ومن رأى حضرة الباحث أننى أخطأت فشق علىّ أن أعترف بالخطأ ، فرحت ألتمس العلل ، إلى آخر ما قال

وأحدد وجه الخلاف فأقول : جاء فى مقالى عن كتاب المطالعات للأستاذ عباس محمود العقاد أنه ليس من الخير لمصر أن يكثر فيها أهل اللطف والظرف ، وقد رسمت الظرف بضم الظاء عامداً ، لأنها بالضم تؤدى معنى لا تؤديه وهى بالفتح ، فبين اللفظين ما يسميه العرب بالفرق اللطيف وما يسميه الفرنسيون Nuance

ثم انتهزت الفرصة فقدمت لقرائى توجيهاً لضم الظاء من الظرف فى لغة المصريين فقلت إنه نوع من الإتباع لكثرة اقتران الظرف باللطف ، والإتباع معروف فى اللغة العربية ، وله شواهد كثيرة سجلت بعضها فى كتاب النثر الفنى

ثم وقع بعد ذلك أن انتقد بعض أدباء فلسطين ذلك التوجيه وعدّه دفاعاً عن أخطاء المصريين . وقد أجيب بأن هناك سبباً يضاف إلى الإتباع وهو التمييز بين المحسوس والمعقول ، فالمصريون يفتحون ظاء الظرف إذا أرادوا « الوعاء » ويضمونها إذا أرادوا « اللطف » وأنا أسمى هذا « غريزة لغوية » وأراه من الصواب

وأنا أسأل الباحث الفضال « ا . ع » عما يعرف فى لغة العرب بالمثلثات ، وهى الألفاظ التى تنطق فاؤها بالفتح والضم والكسر أسأله عن السر فى هذا التثليث ، فهل يراه لغة واحدة ينطق بها من شاء كيف شاء فى جميع البلاد ؟ أم يراه باباً من اختلاف اللهجات يَفْصُح بعضها فى مصر ويَفْصُح الآخر فى الشام أو فى العراق ؟

وإليه هذا المثال : كلمة « جزاف » مثلثة الفاء فهى جَزاف وجُزاف وجِزاف ، ولكن المصريين ينطقونها « جُزاف » بالضم ، فهل ترى من الفصاحة أن ينطقها المصرى فى خطبته بالفتح أو الكسر بحجة أن المعاجم تبيحه ذلك ؟

الحق كل الحق أن اللهجات المختلفة شرقت وغربت ، وهى جميعاً صحيحة النسب إلى العرب ، ولكن اللهجة لا تفصح إلا فى المكان الذى استوطنت فيه ، فإن تجاوزنا بها ذلك كان صنيعنا ضرباً من الإغراب . وعلى هذا يكون ضم الظاء فى الظرف على ألسنة المصريين له ثلاثة توجيهات :

الأول : أن يكون اكتسب حكم الإتباع من اللطف ؛ والثانى : أن يكون للتمييز بين المحسوس والمعقول ؛ والثالث : أن يكون لهجة عربية تفردت بها بعض القبائل التى استوطنت وادى النيل

وبهذه المناسبة ، أذكر أن الأستاذ أحمد العوامرى بك كان كتب كلمة فى مجلة المجمع اللغوى عن « نادى التجديف » بالدال المهملة ، فكان من رأيه أنه « التجذيف » بالذال المعجمة ؛ وقد ناقشته يومئذ فى جريدة « البلاغ » ؛ فقلت : إن الشعرانى فى مؤلفاته يرسمها بالقاف فيقول « التقذيف » ؛ وعند مراجعة القاموس المحيط رأيته يثبت ثلاثة حروف هى : المجداف والمجذاف والمقذاف ... فما معنى ذلك ؟ معناه أن العرب لهم فى هذا المعنى ثلاثة ألفاظ تنقل بها الحظ من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل ،

فمن الواجب إذاً أن ندرك أن المصريين لم يقولوا « التجديف » إلا وهم يريدون « التقذيف » ، فهم قلبوا القاف جيما كما يصنع بعض اليمنيين والعراقيين ، وكما يصنع سكان مصر من أهل الصعيد بدليل أن سكان مصر من أهل المنوفية يقولون « التأديف » ، على عادتهم فى وضع الهمزة مكان القاف

وتلك فائدة لا ينكرها باحث مفضال مثل المواصرى بك . . .

ألم يسمع بالمثل المصرى الذى يقول : « على قد فوله قدّفوا له »

فهذا المثل يرى التجديف هو التقذيف ، وقلبت الذال دالاً على طريقة بعض القبائل العربية فى تحويل المعجمات إلى مهملات

ولهذا البحث تفاصيل سأقدمها لحضرة الأستاذ « ا . ع » إذا بدا له أن يعقّب على هذا البحث من جديد ، فهو فيما أرى من أكابر الباحثين

أما القول بأنى أعدّى فعل « أمكنَ » بالحرف وهو يتعدى بنفسه ، فله توجيه سجلته فى مجلة أبوللو منذ أعوام حين اعترض أحد أدباء العراق على تعـدية فعل « حرّم » بالحرف فى بعض قصائدى ، وهو يتعدى بنفسه ؛ وخلاصة ذلك التوجيه أنى قد أرى المعنى فى بعض الأحايين لا يؤدّى تأدية صحيحة إلا إذا عبرت عنه بتلك الصورة ، وكان الأستاذ محمد عبد الغنى حسن يعرف عنى ذلك الرأى ، فلم أر موجباً لمناقشته فيه . . . ولم يكن إيثارى لذلك التعبير ضرباً من العناد ، كما أراد حضرة الباحث أن يقول ، وإنما كان إيثاراً لحرية القلم فى شرح دقائق المعانى ، وهى حرية تفرض الثورة على المعاجم فى بعض الأحايين زكى مبارك

خصومة لا عداوة

قرأت فى العدد الماضى من « الرسالة » كلة للدكتور زكى مبارك عن الجدل بينه وبين الأستاذ السباعى بيومى . جاء فيها :

« رأى جماعة من كبار المفتشين وهم الأساتذة جاد المولى بك ومحمد على مصطفى ومحمود محمد حمزة ومصطفى أمين وأحمد على عباس . رأى هؤلاء الأكابر بأخلاقهم وآدابهم أن أقف الجدال الذى أثرته فى وجه الأسـتاذ السباعى بيومى ، وحجتهم أنه وصل إلى درجات من العنف تؤذى كرامة المشتغلين بخدمة اللغة العربية .

« وأنا أجيب هذه الدعوة . . . الخ »

وقد رأيت فى الصورة التى عرض بها الدكتور زكى مبارك هذه الوساطة ما دعانى إلى الاستفسار من حضرات من ذكرهم عن الصورة الدقيقة لتدخلهم ؛ فعلمت منهم أن وساطتهم بين الأستاذ الدكتور كانت منصبة على أسلوب الجدل لا على موضوعه ؛ وفى نظرهم أن مستوى المناقشة بين أديبين ورجلين من رجال التعليم يجب أن يرتفع عن هذه اللهجة . أما الفحص عن الحقيقة وتداول الأقلام فى الموضوعات العلمية والأدبية فليس لهم عليها اعتراض بل يسرهم أن يشجعوا عليهما ويستزيدوا منهما

هـذا هو رأى حضرات الأفاضل الذين احتج الدكتور بتدخلهم فى الانسحاب من المعركة التى أثارها . فإذا كان لدى الدكتور ما يقوله بالأسلوب اللائق فليستمر فيه غير ملوم من أحد ولا مزجو فى الانسحاب

وما أبغى بهذه الملاحظة تدخلاً فى المعركة ؛ فليس من خلقى أن أتدخل فى نزاع فرعى . ولو شئت معركة لاخترت ميدانها الأصيل . سيد قطب

(الرسالة) : أرسل إلينا الأستاذ السباعى بيومى مقاله الرابع يهجم فيه على الدكتور زكى مبارك فهيأناه للنشر ، ولـكن بعض ذوى الرأى والفضل رغب إلينا أن نقف هذه المناظرة العنيفة عند هذا الحد بعد أن أتى أحد المتناظرين الفاضلين القلم إجابة لدعوة زملائه الـكريمة

بستان النشاشيبى

أهدى أديب العربية الأستاذ إسعاف النشاشيبى كتابه (البستان) إلى صديقه الأستاذ محمد بهجة الأثرى مفتش اللغة العربية ببغداد فأرسل إليه هذه الأبيات الرقيقة :

سيدى « إسعافُ » يا أمـــثل خُلصانٍ وَخِلٌ
أنا من بستانك الزا هر فى طيب وظـــل
بين ورد باسم الثغـــر وريحان وفُل
زمر نســـقها الذو ق على أجمل شكل
أتمـــلاها بعيـــنىّ وأرعاهـــا بعقـــلى
أتلقـــاها بلـــثم وَتَـلَـقّـــانى بِـبذل
***
جل ما أهديت من را ح وريحان ونقل
أسكر المشموم نفسى وغـــذا المطعوم عقلى
محمد بهجة الأثرى

شبابيك القلل

كان للـكلمة التى كتبتها بهذا العنوان فى العدد ٣٩٩ من « الرسالة » أثر حسن فيما كتبه الدكتور زكى محمد حسن فى العدد ١١٥ من « مجلة الثقافة » تعقيباً على مقاله الأول فى هذا الموضوع ، فقد تدارك الدكتور زكى — إلى حد ما — ما فاته فى مقاله الأول

وإذا قلت — إلى حد ما — فذلك لأنه حاول في مقاله الأخير أن يفسر قوله : « إن من العجب أن يعنى بزخرفة شبابيك القلل إلى هـذا الحد بينما تبقى القلل نفسها بغير طلاء أو رسوم زخرفية » فبعد أن نقل ما كتبته في « الرسالة » عن القلل الصيفية وهي من الفخار غير المطلي ، والقلل الشتوية وهي المكسوة بطلاء زجاجي ، أراد أن يجد لنفسه عذراً فقال : أما أن هناك قللاً عليها طلاء فأمر لم ننكره أبداً ، وحسب القارئ الذي بادر بالتعليق على مقالنا أن يرجع إلى كتابنا كنوز الفاطميين ولا نخاله يجهله ، ثم استشهد بالعبارة الآتية نقلاً عن الصفحة ١٧٢ من هذا الكتاب

« فالفخار غير المدهون كانت تصنع منه أبسط الأواني اللازمة لطبقات الشعب ، ولا سيما القلل التي كانت من الفخار غير المطلي ، إلا في النادر جداً ، لأن المقصود منها تبريد الماء ، ولا بد من المسام للوصول إلى هذا الغرض ، ومن ثم فإن الذي وصل إلينا منها يكاد يكون خالياً من أي دهان زجاجي »

وإني أود أن أوجه نظر الدكتور إلى أن شبابيك القلل الشتوية ذات الطلاء الزجاجي ، توجد في دار الآثار العربية وعددها بالمئات — كما كان يجب أن يعلم ذلك — ومن ثم فإني لا أرى ما يبرر قوله إن هذا النوع منها لا يوجد « إلا في النادر جداً » و « أن الذي وصل إلينا منها يكاد يكون خالياً من أي دهان زجاجي » ، ولست أرى هنا أي مجال للتفسير اللغوي

وإذا كنت لم أشر إلى كتاب « كنوز الفاطميين » في كلمتي السابقة فقد كان ذلك لسبب واحد ، وهو أنني اكتفيت بتصحيح ما جاء في مقال الدكتور زكي ، ولم أجد ما يثير الرغبة في نفسي لنقد ما أورده في كتابه

وكيف أجهل هذا الكتاب وقد كان لي — إبان اشتغالي بالتدريس في جامعة بون — شرف مساعدة الأستاذ باول كالا في كتابة بحث واف عنوانه « كنوز الفاطميين » وقد نشر هذا البحث ـ كما يعلم حضرة الدكتور الفاضل ـ في مجلة المستشرقين الألمانية ZDMG في المجلد ١٤ سنة ١٩٣٥ (ص ٣٣٩ ـ ٣٦٢) ولا ينسى الدكتور زكي محمد حسن ما لهذا البحث ، ولما فيه من حواش قيمة ، من فضل في وضع كتابه — الذي طبع في سنة ١٩٣٧ — باللغة العربية في نفس هـذا الموضوع وبنفس هذا العنوان ! وما كنت أود أن أذكره بهذه الحقيقة ، لولا أنه في تنويهه عن كتابه ، بدلاً من الاعتراف بالفضل ، وجدت — للأسف — ما هو دون ذلك ، وهـذا ما كنت أنزه الدكتور عنه .

دكتور محمد مصطفى

تحريف معنى بيت بالنحو

فهم صديقي الأستاذ الفاضل إبراهيم علي أبو الخشب أن ما ذكرته في تحريف معنى بيت بالنحو يدخل فيما يؤثر عن علمائنا — إن نكت النحو كالورد تشم ولا تدعك — والحقيقة أن ما ذكرته في ذلك من صميم النحو وليس من نكته

وأما الذي ذكره من أن أو المتمحضة للعطف وأو الناصبة ، فلم يأت فيه بجديد في المسألة . ونحن حين نجري قول الشاعر : « لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى » على معنى : ليكونن مني استسهال للصعب أو إدراك للمنى ، نكون قد خرجنا بأو الناصبة إلى أو المتمحضة للعطف . وقد اعترفت أيها الأستاذ الفاضل بأن أو المتمحضة للعطف لها معان غير معاني أو الناصبة ، فكيف نحمل إحداهما معنى الأخرى ؟

وليس بحق ما ذكرته من أن المعنى في البيت على محض العطف، وأن معناه ليكونن مني استسهال للصعب وإدراك المعنى ، لأن هذا يجعل ما بعد أو داخلاً في حكم ما قبلها من إثبات ونفي وقسم ونحو ذلك ، مع أن المضارع المنصوب بعد أو ، لا يدخل في حكم ما قبله بذلك الشكل ، ويظهر أثر ذلك صريحاً في نحو قولك — لا أكلمك أو أرضى عنك — فأو فيه بمعنى إلى ، ولا يصح تقدير العطف فيه ، لأنه لا يصح تقديره على العطف — لا يكون مني كلام أو رضاً عنك — لئلا يدخل الرضا في حكم النفي مع أنه ليس بداخل فيه

وكذلك الأمر في نحو — لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ، ولأجتهدن أو أنجح — لأنه على تقدير العطف يكون كاذباً إذا استسهل الصعب ولم ينل المنى ، وإذا اجتهد ولم ينجح مع أنه إذا قال — لأجتهدن أو أنجح — فاجتهد ولم ينجح ، لا يكون كاذباً . على أنه ليس بعـد هذا كله ما يدعو إلى جعل أو الناصبة عاطفة ، وإنما ذلك تكلف يلزم البصريين وحدهم

عبد المتعال الصعيدي



مرض طبيب ...

للأســتاذ نجيب محفوظ

قبل عامين تفشى وباء التيفود فى مديرية الغربية تفشياً مخيفاً فتك بنفوس الكثيرين، وصادف ذلك انقضاء بضعة أشهر على تعيين الدكتور زكى أنيس طبيباً بمستشفى طنطا وفتحه عيادته الخاصة، وكان فى تلك الأيام يلاقى الشدائد المقضى على كل مبتدىء فى فنه أن يلقاها أول عهده بالحياة العملية. فكان ينتظر طويلاً وعبثاً توارد الزوار والمرضى مستوصياً بالصبر والتجلد حتى كاد يلحقه الجزع. فلما تفشى ذلك الوباء الخبيث تضاعف عمله بالمستشفى وشحذ نشاطه ومضى يراقب حركة السيارات التى تطوف بالبيوت وتعود محملة بالضحايا بعينين كئيبتين وعزيمة متوثبة، وأحس بالرغم من كل شىء بسرور خفى، وأحيا قلبه الأمل فى أن يدعى يوماً لعلاج مصاب من الذين تثقل بهم جيوبهم عن الانتقال إلى المستشفيات العامة، ولم ييئسه تقاطر الناس على كبير الأطباء وبعض الأطباء القدماء بالمدينة وأصغى إلى هاتف تفاؤل ما انفك يهمس لقلبه بأن دوره لا محالة آت.

وصدق أمله، وإنه ليجلس إلى مكتبه يوماً يقلب صفحات كتاب وتجرى عيناه على أسطره جريان الشرود والملل إذ طرق بابه كهل يدل منظره الوجيه وزيه الريفى الثمين على أنه من الأعيان؛ ولعله قصده بعد أن يئس من العثور على سواه، فطلب إليه بلهجة تنم على القلق أن يصحبه إلى الماصرية على مسير ربع ساعة بالسيارة. وكان الشاب يعد العدة لمثل هذا اللقاء فلم يبد على وجهه أثر مما اضطرب فى صدره من الفرح والظفر، فألقى على القادم نظرة رزينة وقام من فوره فخلع معطفه الأبيض وارتدى الجاكتة والطربوش وأخذ حقيبته وتقدمه إلى الطريق. والتقى أمام الباب بسيارة فخمة فخفق قلبه مرة أخرى وتريث حتى فتح الرجل الباب وقال له «تفضل» وجلسا جنباً إلى جنب وانطلقت بهما السيارة، وحافظ على هدوئه ورزانته وصر بأسنانه ليطرد ابتسامة خفيفة تحاول أن تعتلى شفتيه؛ وكأنه أراد أن يدارى عواطفه فسأل الرجل عن مريضه، وتكلم الرجل فى إسهاب فقال إن المريض ابنه وإنه لم يجاوز العشرين من عمره، وأنه أحس منذ أيام بتوعك وخور ورغبة عن تناول الطعام، ثم ارتفعت حرارته واستسلم للرقاد فسأله: «هل حقن بالمصل الواقى؟» فأجاب الرجل بالنفى، وأعلن عن رجائه الحار ألا يكون الشاب أصيب بالحمى الخبيثة، فصمت الطبيب ملياً يفكر فى هذه الأعراض ويزنها بميزان اختباراته وعلمه، وكانت السيارة فى أثناء ذلك تخترق الطريق الزراعى بسرعة البرق حتى بلغت الماصرية وانعطفت إلى حاراتها الضيقة ثم وقفت أمام دار كبيرة، فدخلا معاً واستقبلتهما أوجه كثيرة بأعين يقتتل بها الخوف والأمل، فساوره القلق وتلبسه شعوره حين تمرض لأول مريض بدأ به حياته التمرينية فى قصر العينى منذ ثلاثة أعوام، فاستصرخ قوة إرادته ليضبط بها وجدانه ويجتاز هذه التجربة الجديدة بالنجاح، وأغضى عمن حوله وسدد انتباهه إلى الشاب الراقد بين يديه، وكشف عليه بعناية فائقة وفحصه فحصاً دقيقاً فترجح لديه أنه مصاب بالتيفود، وأبدى رأيه فى تحفظ وقال إنه ينبغى أن يفحص المريض فى اليوم التالى ليستوثق من رأيه، فلا آمنهم من خوف ولا أفقدهم الأمل، وظن أنه ضمن لنفسه أن يتردد على المريض حتى يبلغ به الشفاء بفنه أو يودعه القبر بأمر الله. ثم أخذ حقيبته واتجه نحو الباب بخطى وئيدة كأنه يريد شيئاً، فلحق به والد المريض وهمس فى أذنه قائلاً: «تفضل» فخفق قلبه لثالث مرة ذلك اليوم ومد يده وهو يقول: «شكراً» فأحس بثلاث قطع من ذات العشرة قروش توضع بها، ثم جلس فى السيارة منفرداً هذه المرة، وانطلقت به فى طريق العودة؛ وكانت هذه أول مرة يدعى فيها إلى زيارة مريض فى بيته، فاغتبط ورضى وأشعل غليونه وراح يدخن بحالة من السرور لم تخل من اضطراب عصبى فأخذ «أنفاساً» سريعة فتوهج التبغ وسخن الغليون، ولم يستمر فى التدخين طويلاً فوضعه فى جيب الجاكتة الأعلى وأرسل بناظريه خلل زجاج النافذة يشاهد الحقول الممتدة على جانب الطريق الغارقة فى الأفق البعيد، وكانت تنتهى عند الطريق الزراعى بجدول من الماء ينساب صافياً تستحم فيه أشعة الشمس المائلة للغروب وتتشاه بنور لألاء بهيج يخطف الأبصار؛ فاستسلم لسحر الرؤية، وشعر بتخدير لذيذ، حتى انتبه إلى تغير غريب يسرى فى صدره وجسمه فتحولت أفكاره من الخارج إلى الداخل

فأحس بسخونة تنتشر فى أعضائه جميعاً كأن حرارته ارتفعت بغتة، فتململ فى جلسته وحرك رقبته بعنف، ثم لم يحتمل شدتها فخلع طربوشه وفك أزرار الجاكتة وأخرج منديلاً يروح به على وجهه وهو يعجب أشد العجب لأن الجو كان معتدلاً لطيفاً، واشتدت وطأة السخونة والتهب جسمه بالحرارة، فجس خديه وجبينه وشعر بثقل فى جفنيه ورأسه وضيق فى التنفس، وتساءل فى حيرة عما أصابه، وخطر له خاطر مخيف: هل يكون مريضاً؟! ... وذكر لتوه الحمى الشيطانية التى تفتك بأهل المديرية فتكاً جهنمياً

وكان قد حقن نفسه بالمصل الواقى فكيف انتقلت إليه العدوى؟! ... هل سبقت الميكروبات المصل إلى دمه؟! ... ولفه الذعر، وكان فى الحقيقة جباناً رعديداً شديد الهواجس سرعان ما يستسلم للتشاؤم ويقع فريسة سهلة للمخاوف، فعاد يجس خديه وجبينه فوجدها ساخنة وأحس بجسمه يكاد يلتهب التهاباً فاستولى عليه الفزع وارتعدت فرائصه وقال بذهول «ياللويل ... لقد أصبت وانتهيت ... »

وقطعت السيارة مرحلتها وانتهت إلى عيادة الطبيب الشاب — وكانت عيادته ومقامه فى شقة واحدة — فتركها على عجل وصعد إلى حجرة نومه واستدعى التمرجى وقال له: «نادِ الدكتور سامى بهجت بسرعة وقل له إنى أصبت بالتيفود» فجرى الرجل مرتبكاً وأخذ الدكتور يخلع ثيابه بيدين مضطربتين وارتدى البيجامة وارتمى على الفراش فى حالة يأس ورعب وغم شديد وقد خيل إليه أن شرايينه ستنفجر من الحرارة. وكان يستحضر فى ذاكرته أعراض المرض فلم يعد لديه ثمت شك فى أنه مريض؛ وثبت فى وهمه بقوة أن هذا المرض سيختم حياته. كان شديد الجبن متهافت الأعصاب فلم يستطع أن يأمل قط فى النجاة وبات فى يأس عظيم، وظل يعد الدقائق الثقيلة المرهقة ويصيح غاضباً «هيهات أن يجد الدكتور فى عيادته، وسأجن هنا وحدى ... »

وفى أثناء الانتظار فزعت أفكاره المجنونة إلى القاهرة، إلى أمه، ووجد حاجة شديدة إليها، وإلى وجودها إلى جانبه لتسهر عليه؛ وفكر فعلاً فى أن يبعث إليها ببرقية، ولكنه لم يقبل هذه الفكرة بسهولة، وأشفق من إرهاقها وإزعاج حياة والده وإخوته الصغار وربما عرضها للخطر أيضاً — وكان هذا أول شعور طيب يخالط قلبه منذ قدم طنطا — فصدقت نيته على أن يطلب إلى الدكتور بهجت نقله إلى المستشفى، وربما تمكن من رؤيتها هناك ليودعها إذا اشتد عليه الحال. وقد حن إليها فى تلك الساعة حنيناً موجعاً ... وأغمض جفنيه هنيهة يلتمس الجمام ويطرد عن قلبه الوساوس والهواجس، ولكن وجدانه الثائر أبى أن يدعه فى راحة أو طمأنينة، أو أن يصرفه عن الانشغال الأليم بمرضه. ولم يكن دار له بخلد أن الطبيب بمأمن من الأمراض، ومع ذلك أحس بمرارة وسخط وحنق وساءه أن يفتضح مرضه النادر فى أثناء عودته من زورة مريض. أما كان الأجل أن يجزى غير هذا الجزاء!! ... وقر فى نفسه أن العدوى انتقلت إليه فى أثناء قيامه بواجبه فى المستشفى بالرغم من حذره ويقظته فتضاعف سخطه وحنقه، وأسى على حياته التى لم يتح له التمتع بها؛ وكان يدفع إلى فكرة الموت دفعاً عنيفاً، ويقسر على الاستغراق فيها بقوة شيطانية ... وحدثه قلبه الرعديد بأن نهايته حمت، فعطف رأسه إلى المرآة وأدام النظر إلى وجهه، فخيل إليه أنه محتقن بالدم الفاسد؛ ولكن كان ما يزال محتفظاً بنضارة الحياة وأثر الصحة الآخذة فى الاضمحلال، فألقى عليه نظرة آسيفة حزينة، كأنما يودع آخر صورة للحياة والصحة عالقة به ... ثم أدار رأسه قانطاً، وأسلمه القنوط إلى الاستسلام، وأسلمه الاستسلام إلى الاستهانة، ولاذ بها من مخاوفه، وقال لنفسه علام الخوف والذعر؟ الموت آت لا ريب فيه، إن لم يكن اليوم فغداً ... هو النهاية المحتومة على أية حال لمهزلة الحياة ... وماذا يضيره أن يقصر دوره فى هذه المهزلة؟ فلعل فى قصره اختزالاً لآلام مروعة. على أن تعزيه لم يدم طويلاً ... وألحت على قلبه الآلام مرة أخرى ... فذكر آماله وأطماعه فى المجد والثروة، وارتسمت على شفتيه لهذه الذكرى ابتسامة مريرة ساخرة ... وشعر بامتعاض يفوق الوصف ... وذكر الثلاثين قرشاً التى طرب لها فرحاً قبل حين قصير: فازداد امتعاضه، ولعن رزقه الذى يناله من أيد شحيحة، لا تفرط فيه حتى يهزلها المرض، فتراخى عن الضن به، ولعن النظام الذى يجعل سعادة القوم منوطة ببأساء آخرين. يالها من مهنة مخيفة، يستمد رجالها حياتهم من النفوس المريضة كالجراثيم سواء بسواء ... وسخر فى ذعره وتشاؤمه من الإنسانية والتضحية والرحمة، تلك الألفاظ الصماء التى حفظها عن ظهر قلب ولم تختلج له فى شعور قط ...

فهو لم يشمّر أبداً لغير المجد والثروة ، ولم يتصور ساعة أنه يبلغهما بغير معونة المرض ... فعبده وهو لا يدري ، ونصبه آلهاً يقدم له القرابين البشرية كعمل القديم ، حتى سقط هو أخيراً قرباناً له ، فأي حياة هذه ؟ ... وذكر أيضاً في هذيانه وتشاؤمه قروياً بسيطاً عرض له في العيادة الخارجية لقصر العيني ، وكان يريد أن يكشف على حلقه ، فأمره أن يفتح فمه ... وكان كلما أدنى منه المجهر يرتجف الرجل الساذج ويغلق فمه ، وتكرر ذلك منه حتى اشتد به الحنق ، وكان مرهق الأعصاب من كثرة العمل ، فضرب جبين القروي بالمجهر ، فشجه وأسال دمه ... وقد أسف لذلك حقاً ولكن أسفه لم يخفف عن الرجل شيئاً ... وذكرته هذه الحادثة بما يقع خلف جدران قصر العيني من أعمال القسوة التي تفزع من هولها النفوس البشرية ، فذكر أنه تكاسل مرة عن إجراء عملية لمريض ، لأنه كان أجرى هذه العملية مرات عديدة بنجاح ، فلم يشعر بحاجة إلى تمرين جديد . واسودت الدنيا في عينيه ، وعافت نفسه كل شيء في تلك الساعة الخبيثة

ثم سمع وقع أقدام في الردهة وصوت التمرجي يحادث الدكتور ، فتمشت في أعصابه موجة نشاط ونسي وساوسه ، وفزع إلى القادم بأمل جديد ، ودعا ربه بصوت مهدج قائلاً : « آه يا رب ، خذ بيدي ! هبني حياتي مرة ثانية ، أهب الناس أشرف ما في نفسي حتى الموت »

وما انتهى من دعائه حتى برز الدكتور بهجت من باب الحجرة وهو يقول بصوت مرتفع : مساء الخير يا دكتور . مالك ؟

فقال الشاب بهدوء وإن كان في الحق يستغيث : أصبت !

ففحصه الدكتور بعينين نافذتين وأصابعه تفتح الحقيبة ، ثم قال : لعلها أنفلونزا

فقال بيأس : كلا ... لا أشكو زكاماً ولا صداعاً ...

— ولكنك لم تشك تعباً أو فقدان شهية في هذه الأيام ... أليس كذلك ؟ !

وتفكر الشاب قليلاً متحيراً ثم تمتم قائلاً : حرارتي فظيعة ... إني أشعر بالمرض شعوراً مخيفاً ...

— هل قست الحرارة ؟ !

فعجب كيف فاته ذلك ، وهز رأسه نفياً ولاذ بالصمت ؛ فابتسم الدكتور بهجت ابتسامة ساخرة ، ودنا منه والترمومتر في يده ، ثم وضعه في فمه وانتظر هنيهة ، ثم أخذه ثانية ورفعه إلى مستوى عينيه ، ونظر إلى وجه الشاب رافعاً حاجبيه وقال ببساطة : حرارتك طبيعية ... أنظر !

وقرأ الشاب الترمومتر وهو لا يصدق عينيه ، وجس خده ثم قال : هذا عجيب ! خدي ما يزال ملتهباً . كيف هبطت الحرارة ؟ وأتى الدكتور بساعة وطلب إليه أن يفك أزرار الجاكتة ففعل ؛ ووقع بصر الرجل على الفانلا فبدت على وجهه الدهشة وصاح بسرعة وهو يشير إليها قائلاً : « انظر ! »

فأحنى الشاب رأسه ناظراً إلى الفانلا فرأى فوق القلب دائرة مسودة من أثر احتراق خفيف . فاستولت عليه الدهشة وجلس في فراشه وهو يتساءل : « ما الذي صنع بي هذا ! »

فضحك الدكتور بصوت عال وقال : « ها أنت ذا تكتشف حمى جديدة يا دكتور ! » . وخطرت للشاب فكرة فالتفت إلى الشجب وقفز من الفراش واتجه نحوها ووضع يده في جيب الجاكتة الأعلى متناولاً غليونه ، وفحص الجيب بعينيه فرأى آثار التبغ الذي أكل البطانة وحرق القميص وأثر هذا التأثير في الفانلا ، ووقف مرتبكاً ينظر إلى الدكتور بعينين تسألان الصفح ، وقد أحس بحرارة جديدة هي حرارة الخجل والارتباك

وبعد دقائق وجد الشاب نفسه وحيداً مرة أخرى ، وكان ما تزال تعلو شفتيه ابتسامة الارتباك والخجل ولكنه كان يحس بغبطة وسلام ، وكان قلبه يشكر الله الذي وهبه حياته مرة أخرى وبر الشاب بوعده واعتزم أن يكون إنساناً قبل كل شيء ، وعاد إلى عمله تنبض في قلبه أشرف العواطف وأنبلها ، وكان يظن أنه سيصمد للتجارب لا ينكص على عقبيه مهما امتد به الزمن ، ولكن وا أسفاه إن انقضاء الليل والنهار ينسي ، ومن ينغمر في الدنيا يذهل عن نفسه ، وللحياة جلبة تبتلع همسات الضمير ، فقد أخذ يتناسى محنته ودعاءه ووعده حتى نسي ولم يعد يذكر إلا عمله ومستقبله وآماله وأطماعه ، ثم ارتد إلى ما كان عليه ، وكانت تلك الأيام القلائل في حياته كهدوء البحر الذي يصفو ويرق حتى يشف عن باطنه ثم لا يلبث أن تهيجه الرياح والعواصف فيرغى ويزبد وتعلو أمواجه كالجبال . ولعله لا يذكر هذه الحادثة الآن إلا كدعابة يتندر بها ويقصها على صحبه إذا دعا داعي الحديث أو السمر !

نجيب محفوظ

مطبعة الرسالة — ٨١ شارع السلطان حسين عابدين . القاهرة